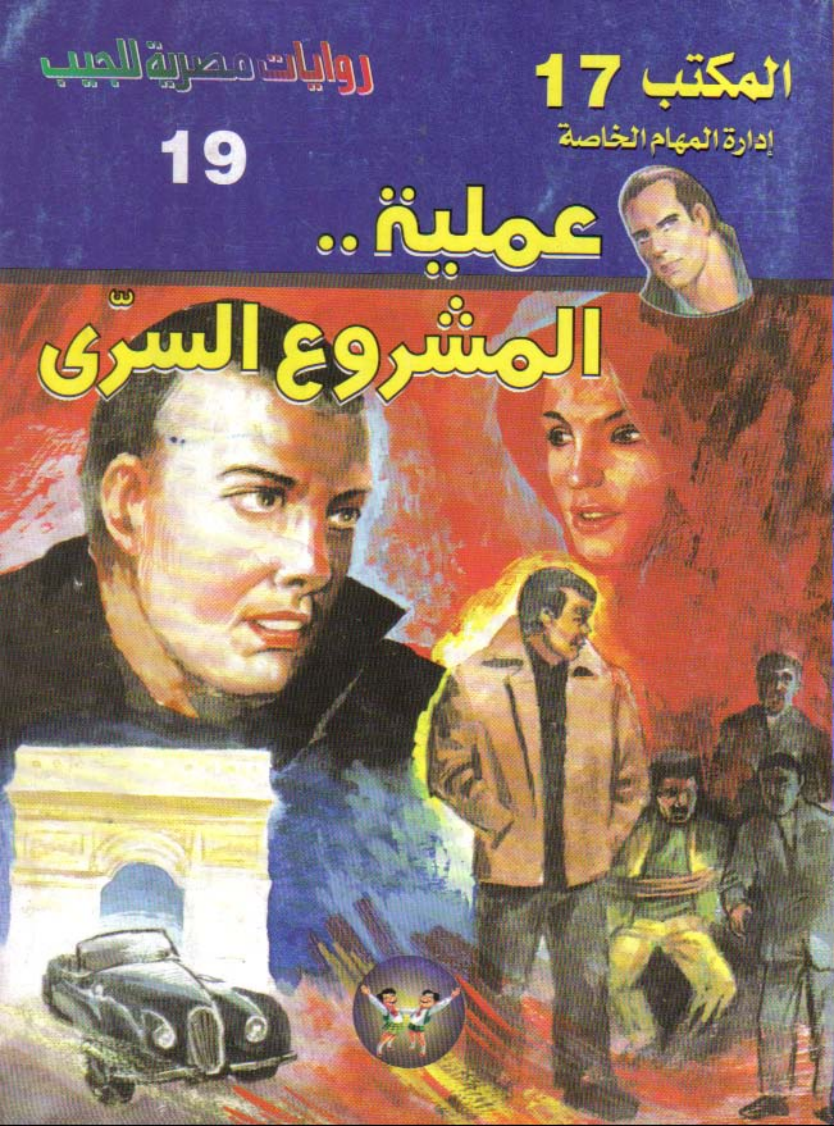
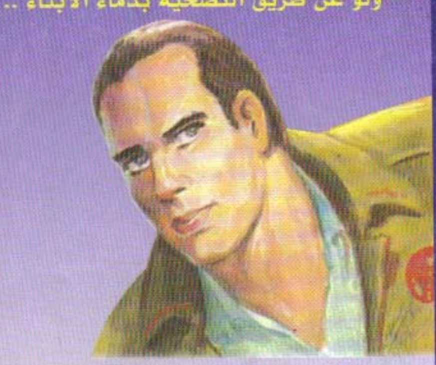

روايات مصرية للجيب
المكتب 17
إدارة المهام الخاصة
19
عملية ..
المشروع السرّى

عملية ..
المشروع السرّى

بين الماضى والحاضر .. كانت مراحل إعداد المشروع السرى طويلة ومضنية ، وكانت النتائج مبشرة للمدافعين عنه ومثيرة لقلق المعارضين - فى وقت واحد - أما الذين ترددوا فى إبداء الرأى فقد وجدوا أنفسهم مشاركين فى العرض دون رغبة منهم ، ووجدوا أنفسهم - فى بعض الأحيان - يقاتلون فى الجبهتين معاً ..

بعد كل هذه السنوات يتعرض السر للانكشاف ، والخيارات المتاحة قليلة للأسف ، تترنح ما بين انهيار كل شىء أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

ولو عن طريق التضحية بدماء الأبناء ..



الثمن فى مصر ٢٥٠ مـ

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢

د. محمد سليمان عبد المالك

المكتب 17
إدارة المهام الخاصة

★★★★

سلسلة روايات عصرية للشباب حافلة بالمغامرة والإثارة والتشويق



الرواية القادمة
عملية موجهة

ما حدث

تنويه مهم :

ربما كان من الصعب أن نتتبع جذور هذه المهمة بالذات ، فهى ذات ذيول تمتد إلى مهام عديدة سابقة ، لكننا سنحاول أن نركز على أحداث (عملية رجل الليل) التى غيرت مجرى حياة بطلنا (عمر زهران) بشكل غير متوقع ، وعلى من تقف أمامه تفصيلة مبهمة ، أو شخصية لا يعرف عنها الكثير ، أن يرجع إلى المهمات السابقة من أجل صورة أكثر اكتمالاً ..

★ ★ ★

فى (القاهرة) كانت (دينا واصف) تعانى من تشنجات عنيفة بعد التجربة العلمية التى تعرضت لها فى (بوخارست) لمسح ذاكرتها ، وكان (روى باور) إمبراطور الأعمال غير المشروعة العالمى ، والذى تم

احتجازه فى أروقة الإدارة بعد المهمة السابقة يعانى من نفس الأعراض أيضًا نتيجة لنفس التجربة ، ويقوم بالإشراف على علاجهما الدكتور (نبيه الزينى) أحد أقدم أطباء المكتب (١٧) وصديق العميد (منصور حرب) الشخصى ..

فى (مدريد) يقتحم (روى باور) اجتماع مجلس إدارة شركاته الاستثمارية ، ويبرز صورة من يفترض أن يدير أعماله بعد أن يتوارى هو فى الظل ..

صورة (عمر زهران) !

وتتكشف الأحداث بسرعة عن الخطة السرية ، فـ (عمر) نفسه كان متخفيًا فى زى (باور) لينقل إدارة كل أعماله له ، بحيث يصبح فى موقعه فائدة عظمى كمصدر معلومات للمكتب (١٧) ..

غير أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ..

يتم اغتيال الحارسين الشخصيين الخاصين لـ (عمر) فى الفندق الذى يقيم فيه ، ومعهما رجل ثالث لا يعرفه ، ويتم

اصطحابه إلى قصر ناء بواسطة (صوفى) المحترفة الفرنسية التى تسدد إليه مسدسًا ، وهناك يلتقى بآخر من كان يتصور لقاءه ..

بالأحرى لقاؤها !

إنها (مادلين تشايمر) الفرنسية القعيدة ، وغريمته منذ أولى مهامه منفردًا فى (باريس) ، وهى تعرض عليه عرضًا غريبًا : عليه أن يغتال مستشار الرئيس الأمريكى فى مبنى السفارة الأمريكية بـ (مدريد) بمسدس ناولته إياه ، فى مقابل معلومات مهمة ستمنحها له عن حياته وماضيه..

معلومات لا يعرفها أحد سواها ..

عرض غريب ، لكن الأغرب أن (عمر) قد وافق ، وذهب إلى الحفل بالفعل بعد أن تلقى بطاقة دعوة موقعة من (رجل الليل) الغامض ، وبعد أن اكتشف أن (مادلين) قد أعطته مسدسًا خاليًا من الرصاصات !

فى هذه الأثناء يتم اختطاف الدكتور (رومانو) المجرى صاحب اختراع مسح الذاكرة ، وتختفى (دينا واصف) من غرفة علاجها بمبنى الإدارة أيضًا ، عن طريق تواطؤ الدكتور (نبيه) نفسه الذى لم يحتمل خيانة ارتكبها ، وبعد أن تحدّث نادمًا عن جريمته المشتركة مع العميد (حرب) منذ ثلاثين عامًا ، يطلق النار على رأسه ويلقى مصرعه منتحرًا على الفور ..

فى نفس الوقت يطلق خاطفو (دينا) النار على رأس الدكتور (رومانو) ، قبل أن يولوا الفرار خارج (مصر) كلها ، مصطحبين (دينا) معهم كامرأة احترق وجهها بفعل حادث محدود ، وفى القصر الذى كانوا يختبئون فيه ، يعثر العميد (حرب) على ورقة موقعة بنفس اللقب الغامض ..

(رجل الليل) !

فى حفل السفارة تقابل (صوفى) (عمر) وتخبره بمكان تخبئة المسدس ، وعندما يخرجه ويسدد فوهته إلى الهدف الذى يلقى كلمة الحفل ، يفاجأ برصاصة تنطلق من

مكان آخر لتصيب صدر الرجل ، وعندما ينبطح الجميع يرون (عمر) وهو يسدد مسدسه إليه ذاهلا ، وتستطيع الصحفية التلفزيونية الشهيرة (كارلا روبرتس) أن تصور بالكاميرا عملية هروبه ومطاردة حراس السفارة له حتى يختفى داخل سيارة ظهرت فى نهاية الشارع بغتة ..

لقد أنقذه دكتور أمريكى مخبول يدعى (رالف آندرسون) من الموت برصاصات مطارديه ، وضمد دكتور آسيوى يدعى (ميشيما) جروحه فى شقة صغيرة تعمها الفوضى ، فى الوقت الذى طار فيه العميد (حرب) إلى (مدريد) بعد أن أذاعت شبكة (فى . بى . سى . نيوز) شريط (كارلا) المصور ، وبدأت الدائرة تضيق حول (عمر) ..

يقابل (منصور حرب) (مادلين تشايمر) ، وتطلب هى منه أن يعيد إليها ساقيها اللتين فقدتهما لأنها كشفت الحقيقة التآمرية بين المكتب (١٧) وشركة التقنيات التى ورثتها عن والدها ، وتهدده بكشف الحقيقة أمام تلميذه (عمر زهران) ، الذى كان يسترق السمع من خارج النافذة دون أن ينتبه إليه أى منهما ..

بعدها مباشرة يقرر (عمر) أن يجرى فحصًا بالأشعة على جمجمته بمعاونة الدكتور (ميشيما) ، ليكتشف الحقيقة المروعة ..

إن هناك شريحة إلكترونية مزروعة فى رأسه ..

والأمر يتعلق بمشروع سرى تم فى سبعينيات القرن العشرين ..

وهكذا انفتحت صفحة جديدة تمامًا من حياته ، تتداخل فيها ذكريات الماضى مع أوجاع الحاضر ..

وغموض المستقبل المجهول ..

★ ★ ★

القاهرة ـ ١٩٧٥

وكأن شمس (أغسطس) الملتهبة فى منتصف الظهيرة لا تكفى ، فقد اشتعل النقاش حتى كاد يحرق غرفة الاجتماعات المتواضعة التى جلسوا داخلها بالسترات الرسمية ، وبطبيعة الحال لم يحتمل البعض الحرارة ؛ فخلع أحدهم سترته وعلقها على ظهر مقعده ، وأرخى ثان من إحكام رابطة عنقه قليلاً واستخدم الملف الورقى أمامه كمروحة يهزها أمام وجهه ، بينما أخذ ثالث يجرع من زجاجة المياه المعدنية المثلجة فى يد ، ويده الأخرى تمسح عرقه بمنديله القماشى ، ولعن رابع فى سره تلك المروحة المعطلة المعلقة فى منتصف السقف .. تغلفها طبقات الأتربة وخيوط العناكب ، وتساءل ـ فى سره أيضًا ـ عن السبب فى عدم وضع أجهزة تكييف بعد ، فى مبنى يخص هيئة أمنية عليا رفيعة كهذه ؛ خاصة أننا الآن فى عصر تتسلل فيه أجهزة التكييف وغيرها إلى بنايات البلاد بكثافة إثر سياسة الانفتاح الاقتصادى ، ونظر آخر إلى صورة رئيس

الجمهورية المعلقة فى صدر القاعة بملابسه العسكرية وهو يتساءل فى أعماقه إن كان من الواجب الانحناء لحكمته العسكرية بعد عبور أكتوبر وتحرير جزء من أرض (سيناء) قبل عامين ، أم أن الواجب استهجان سياساته الاقتصادية الهوجاء التى لا يعلم عواقبها إلا الله ، فكل ما يجرى فى البلاد من حولهم هذه الأيام لا يبشر بالخير أبدًا ..

صاح أحدهم وهو يدق سطح المنضدة الكبيرة بقبضته فى عنف :

ـ الهدوء من فضلكم ، هكذا لن نخلص إلى أية نتيجة ..

بدأ اللغط المزعج يخفت تدريجيًا ، وإن ظل هواء الحجرة مشحونًا بكهرباء الانفعال ، فهتف نفس الرجل ليقضى على بقية الهمهمات فى حسم :

ـ الغرض من هذا الاجتماع واضح ، ولن تفيد الأحاديث الجانبية فى الوصول إليه .. نحتاج إلى نقطة نظام هنا أيها السادة ..

ران الصمت التام أخيرًا إلا من ضجيج أبواق السيارات المتسرب من خارج النوافذ المفتوحة ، دون أن يفلح تيار الهواء الشحيح المندفع فى التخفيف من أثر الصهد ، وتحدث أحد كبار السن ممن زحف المشيب إلى شعورهم فى لهجة استهجان واضحة :

ـ لا أرى مغزى للاجتماع من الأصل ، فالفكرة مرفوضة شكلا ومضمونًا ..

كاد اللغط يسود من جديد ، غير أن الأول رفع عقيرته ليسيطر على الأمر بسرعة :

ـ رأيك يهمنا يا سيادة العميد قطعًا ، وله احترامه بالطبع ، لكننا نحتاج إلى آراء الجميع بشكل أكثر تنظيمًا لكى نخلص للنتيجة المرجوة ..

صاح آخر من جيل أصغر ، وقد استطالت سالفتاه إلى حد هائل كما تقضى صيحة ذلك العهد :

ـ لكن ما قرأناه فى الملفات التى وزعت علينا مرعب بحق ، ويبدو غير قابل للتطبيق ..

قال رجل آخر ثابت الجنان يجلس إلى صدر المائدة بملامح جامدة ، ويبدو أصغر الحاضرين سنًا ، فهو لم يتجاوز العقد الرابع من عمره بعد :

ـ فى هذا الصدد لا تقلق يا سيد (عفت) ، إن المشروع قابل للتطبيق بشهادة الخبراء المصريين والأجانب الذين شاركوا فى وضعه ..

قال (عفت) مخاطبًا الرجل مباشرة :

ـ مفهوم أنك متحمس للمشروع إلى هذا الحد يا سيد (فهمى) ، فأنت على رأس من شاركوا فى وضعه ، لكن دعنا ننظر إلى الأمر بمنظور الربح والخسارة ..

هز (فهمى) كتفيه قائلاً فى لامبالاة ، وبدا كأنما يجاهد لئلا تطفو بسمة على وجهه :

ـ لا بأس ، دعنا ننظر إليه عبر أى منظور تريده ..

تطوع شاب آخر جالس إلى جوار (فهمى) بالحديث فى حماس دون أن يدعوه أحد :

ـ إنه مشروع المستقبل يا سادة ، تجربة علمية عالمية رائدة ، ستساهم فى إخراج جيل من رجال الأمن على أعلى مستوى ، نسبة الكفاءة خرافية ونسبة الولاء لا محدودة ونسبة تحسين مستويات الأداء غير مسبوقة ، أى ربح يمكن أن نجنيه أكثر من هذا ؟!

قال (عفت) محاولا السيطرة على هدوء نبراته ، واختيار كلماته بعناية :

ـ كل هذا رائع ، وقد قرأناه فى الدراسة المبدئية التى قدمها السيد (فهمى) بمشاركتك يا سيد (صالح) ، ولكن ما لم تذكره الدراسة هو الجانب الآخر ، أعنى الأطفال الأبرياء الذين تريدون منا أن نخضعهم لهذه التجارب ، لكى يصبحوا رجال أمن أكفاء فى غضون عشرة أعوام أو عشرين عامًا كما ذكرتم ..

هز (صالح) كتفيه قائلاً فى استهانة :

ـ ماذا عنهم ؟!

انعقد لسان (عفت) وهو يقلب الملف بين يديه فى سرعة كأنما يبحث عما يقوله ، فأنقذه آخر ـ من الجالسين إلى جواره ـ بقوله :

ـ إنكم تريدون أن يمر هؤلاء الأطفال ببرامج إعداد وتأهيل منذ سن الطفولة لكى يصبحوا رجال أمن لا يشق لهم غبار فى المستقبل ، أليس كذلك ؟!

عاد (صالح) يهز كتفيه ويقول بنفس الاستهانة :

ـ بلى ، وما الضرر فى ذلك يا سيد (منصور) ؟!

كاد السيد (منصور) ـ بملامحه التى تشبه ملامح الصقر ـ يرد ، غير أن (عفت) سبقه مشيرًا إلى سطور فى أوراق الملف الذى أمامه :

ـ ربما كانت هذه النقطة فى حد ذاتها لا تمثل مشكلة كبرى ، فبالرغم مما تثيره من خلافات أخلاقية حول استلاب طفولة هؤلاء الأطفال منهم ، واستغلالهم كفئران تجارب بشرية فى مشروع غير مأمون العواقب على أى مستوى ،

بالنظر إلى كونه لم يطبق فى أى مكان من قبل ، دعونا نتجاوز هذه النقطة إلى الأخطر والأهم ، أعنى ما دونتماه هنا حول العمليات الجراحية التى تريدان أن يخضع لها هؤلاء الأطفال قبل برامج الإعداد والتأهيل !

ـ أجل ، هذه النقطة التى أثارت رعب الجميع حسب اعتقادى ..

قالها أحد كبار السن ، وعقب بعده السيد (منصور) :

ـ لو أمكن التغاضى عنها فربما ..

قاطعه (فهمى) وهو يشبك كفيه أمامه ، ويتحدث فى لهجة عملية واثقة :

ـ هذا ليس مجرد إجراء روتينى أيها السادة نستطيع من خلاله فحسب أن نتقفى أثر رجالنا حال اختفائهم فى أى مكان بالعالم كما ذكرنا ، بل هو كما ذكرنا أيضًا الأساس الذى يقوم عليه المشروع برمته ..

أكمل (صالح) والحماس يشتعل فى عينيه الضيقتين :

ـ أجل ، إن زرع الشرائح الإلكترونية فى جماجم هؤلاء الأطفال سيمكننا أن نسيطر عليهم تمامًا ، سوف نتمكن من برمجة عقولهم بتقنيات أمريكية فرنسية مشتركة حديثة ليكونوا أكثر كفاءة ؛ لأن هذه الشرائح سوف تتحكم فى مراكز المخ بطرق كهربية وكيماوية معقدة بحيث تزيد من قدرات المراكز المعرفية والحركية والحسية إلى الحد الأقصى ، وبالنسبة للولاء فسيمتد تأثير هذه الشرائح داخل المخ إلى تحفيز الرغبات فى العمل الأمنى أو التقنى أو الإدارى كل حسب وظيفته ، وستنمى حس الانتماء إلى الوطن عبر المراكز العاطفية فى المخ أيضًا .. ماذا يمكن أن نطلب أكثر من هذا ؟!

صاح أحد كبار السن ساخرًا :

ـ وما حاجتنا إلى رجال آليين مبرمجين على حب الوطن ؟! ألن نستطيع تحفيز رجال الأمن على حب أوطانهم إلا عبر غسيل أدمغتهم ؟!

اكفهر وجه (فهمى) وكاد (صالح) ينفجر برد عنيف ، غير أن (عفت) تحدث أولا محاولا تلطيف الجو قبل الانفجار مجددًا :

ـ لن نشكك فى القدرات والمكاسب التى تتحدثان عنها ، لكن .. من منا مستعد للتضحية بابنه لكى يتم زراعة جسم ما فى مخه ؟! ولكى يقضى طفولته ومراهقته وشبابه فى معسكرات الإعداد ليصبح رجل أمن لا يشق له غبار ؟! أشك أنك سوف تفعلها بابنك يا سيد (صالح) ..

هتف (صالح) وقد احتقن وجهه :

ـ لم أرزق بأبناء رغم زواجى منذ فترة طويلة يا سيد (عفت) ، أنت تعرف هذا ، لكنى أؤكد لك أننى لم أكن لأتوانى عن فعلها لو رزقنى الله بابن أو ابنة ، فى سبيل الوطن !!

هز (منصور) رأسه وغمغم :

ـ أنا الآخر لم أرزق بأبناء ، لكنى لا أتصور أنى سأفعلها لو كنت مكانك !

قال أحد الجالسين :

ـ مفهوم أيضًا سبب حماس السيد (فهمى) الذى لم يتزوج بعد من الأصل ..

قال (فهمى) وقد بدأ الضيق يتسلل إلى نبراته بوضوح :

ـ لا علاقة لهذه المسائل الشخصية بموضوعنا يا سادة ، ما نود قوله أن القيود المطروحة لدخول المتطوعين واضحة ، يجب أن يوافق الوالدان ويوقعان كتابة على ذلك ، ولن نستخدم أطفال الأيتام أو الأحداث لأنهم لا يملكون حق تقرير مستقبلهم ، بالإضافة للضمانات الصحية المقدمة من فريقنا الطبى الذى تدرب على هذه العملية فى الخارج على أيدى خبراء ، أى ضمانات تريدونها أكثر من هذا دلالة على أخلاقية وأمان المشروع ؟! دعونا نوافق على المبدأ ولنختلف على التفاصيل كما أحببنا بعدها ..

ونظر (صالح) إلى أحد الجالسين على المائدة ، كان شابًا ثلاثينيًا مرتبكًا يضع نظارة طبية ، ويبدو متوحدًا مع ذاته بعيدًا عن المناقشات ، وقال :

ـ تكلم يا دكتور (نبيه) ، ألم تتدرب على العملية بنفسك على أيدى خبراء فى المخابرات الأمريكية العام الماضى ؟!

هز الدكتور (نبيه) رأسه فى إيجاب ، وأجاب فى اقتضاب يشوبه الخجل :

ـ أجل ، نسبة النجاح تتجاوز التسعين بالمائة ..

عاد اللغط يسود ، وعاد الرجل الأول يدق بقبضته سطح المنضدة فى انزعاج ، قبل أن يهتف :

ـ كفى أيها السادة ، سنأخذ الآن الأصوات بالنسبة لجدوى المشروع ، توطئة لرفعه إلى الجهات العليا .. من يعترض منكم على الفكرة يتفضل برفع يده ..

رفعت الأغلبية الساحقة يدها فى مفاجأة عارمة ، بمن فيهم آخذ الأصوات نفسه !

ـ ومن يوافق عليها يتفضل برفع يده ..

بوجه منتفخ بالاحمرار رفع (فهمى) يده ، وبجواره (صالح) الذى لم يستطع مداراة تأففه ..

ـ الأغلبية ترى رفض المشروع وحفظه ، شكرًا أيها السادة .. انتهى الاجتماع ..

بدأ الجميع فى النهوض ، وبدا أن (فهمى) فى مغادرته يضمر أمرًا ما ، ومن خلفه (صالح) ثم الدكتور (نبيه) الذى اختلس قبل خروجه نظرة إلى (منصور) وكان الأخير جالسًا فى مكانه شاردًا بعينيه فى المجهول بعد مغادرة الأغلبية ..

كان الدكتور (نبيه) واثقًا من أنه لم يره يرفع يده سواء مع الموافقين أو المعارضين ..

لم يرفع يده ..

مثله تمامًا !

* * *

مدريد ـ الوقت الحاضر ..

عطست (كارلا روبرتس) فى قوة ، وتمخطت فى منديل ورقى ألقته فى أقرب سلة مهملات ، قبل أن تستأنف سيرها الذى يقترب من الركض داخل مكتب شبكة (فى . بى . سى . نيوز) بالعاصمة الإسبانية ، وألقت بسؤال إلى الموظف الذى يهرول خلفها ، بنبرات نصف نائمة :

ـ ألم تعرف شيئًا عن سبب هذه الزيارة المفاجئة ؟!

هتف الموظف مرتبكًا :

ـ بالطبع لا ، لقد فوجئنا به فوق رءوسنا فجأة قبل قليل ، وطلب أن يلقاك بمنتهى السرعة ..

غمغمت (كارلا) بصوت لم يسمعه :

ـ فى الأمر شجار آخر إذن ..

ونظرت فى ساعة معصمها التى أشارت إلى الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، وعادت تغمغم وقد بلغت بابًا فى نهاية الممر:

ـ أو كارثة أخرى !

ثم إنها دفعت الباب فى قوة ، وهتفت متصنعة السعادة :

ـ عزيزى (إيفان) ، أية رياح طيبة ألقت بك إلى هنا ؟!

أغلق الموظف الباب عليهما ، ونظر إليها (إيفان) من خلف مكتبه ، قبل أن يشير لها بالجلوس قائلاً ، وقد برقت صلعته تحت أشعة الشمس التى تتوسط السماء فى الخارج بين الغيوم الكثيفة :

ـ اجلسى ، (كارلا) .. فبيننا حديث قد يطول ..

جلست (كارلا) حيث أشار ، وقالت فى تدافع بدت معه كلماتها محتشدة وعصية على الفهم :

ـ لا أهوى الأحاديث الطويلة يا عزيزى (إيفان) ، وأحب أن ندخل فى قلب الموضوع مباشرة ، أعلم أنك هنا من أجل شىء سأرفضه ، وسنتصادم ونتشاجر ، أحب فقط أن تأخذ فى حسبانك أننى لن أتنازل عن تغطية محاولة اغتيال المستشار الأمريكى بالطريقة التى أراها صحيحة والتى تختلف عن تناول كل المحطات الأخرى للحادث ،

وسأذيع الحقيقة كاملة فيما يتعلق بالمصرى الذى تعاملتُ معه مباشرة من قبل والمتهم الأول فى هذه الجريمة ، وعن إنكار السلطات الإسبانية لوجود سلاح الجريمة ؛ نظرًا لأنه يحوى الرصاصات كاملة حسبما أعتقد ، وأخيرًا ! عن ارتباط الأمر برجل الأعمال المثير للجدل (روى باور) وشهادة أحد رجال مؤسسته الاستثمارية هنا أن المشتبه فيه المختفى هو ابن هذا الأخير ، وإن كان لك رأى آخر فسأقدم استقالتى على الفور وأنقل نشاطى إلى محطة أخرى تبحث عن الحقيقة فعلاً !

ران الصمت بينهما ، وأخرجت (كارلا) منديلا آخر لتتمخط فيه قبل أن يسألها (إيفان) فى برود :

ـ أهذا كل شىء ؟!

ـ هذا كل شىء ..

ـ (كارلا) .. أنتِ مفصولة !

الصمت مرة أخرى لفترة قصيرة ، قبل أن تتفجر ملامح (كارلا) بالذهول وهى تهتف :

ـ ماذا ؟!

ـ ما سمعتيه ، صدر القرار هذا الصباح والحيثيات يمكنك قراءتها فيه ..

ناولها ورقة خطفتها منه ومرت عليها بعينيها الجاحظتين ، وقرأت فى خفوت :

ـ لمخالفة قواعد العمل وبث مواد إعلامية تتنافى مع سياسة المحطة دون الرجوع إلى الإدارة العليا و ...

ثم إنها صرخت مطوحة الورقة فى وجهه :

ـ أى جنون هذا ؟!

احتمل (إيفان) ارتطام الورقة بنظارته فى صبر ، وقال بنفس البرود :

ـ بالنسبة لمستحقاتك المادية ومكافأة نهاية الخدمة فسوف يتم تحويلها إلى حسابك البنكى طبقًا للقانون رقم ...

انتفضت (كارلا) من جلستها واقفة وهى تصرخ كالملتاثة :

ـ كف عن هذا من فضلك ، لقد تجاوزتم كل الحدود .. هل تظنون أنى سأصمت ؟! كلا ، سأفضحكم فى كل مكان ، فى القنوات التلفزيونية والصحف والإنترنت ، بل وسأكتب

كتابًا كاملا عن تجربتى فى محطة عقيمة كهذه ، تبحث عن الحقيقة لتقتلها ..

ـ افعلى ما بدا لك ولكن اخفضى من صوتك رجاء حتى لا تثيرى مشكلات هاهنا ..

ـ ليكن يا (إيفان) ، فقط تذكر .. أنت من أرادها حربًا ..

وغادرت المكتب فى حنق رهيب ، بينما رفع (إيفان) سماعة الهاتف وضغط بعض الأرقام :

ـ أجل يا سيدى ، تمت المهمة دون خسائر ، وبالنسبة للشرائط فلا تخش شيئًا ، لن تستطيع أخذها لأننا ببساطة قد أعدمناها .. كن مطمئنًا تمامًا .. رسالتنا القادمة من (مدريد) سوف يذيعها شاب جديد وطموح يدعى (توم) !

أسفل البناية التى تضم مكتب القناة ، كانت (كارلا) تتحدث فى هاتفها المحمول بنبرات عالية مفعمة بالعصبية ، وتتحرك بإفراط كأنها تمارس ألعابًا رياضية :

ـ نعم يا سيدى ، يمكننى أن أقبل بالعرض الذى قدمتوه لانضمامى إليكم من شهر أو أقل .. لن نختلف على المقابل المادى .. ماذا ؟! شكرًا يا سيدى ..

أغلقت (كارلا) الهاتف وألقته على الأرض لتتهشم شاشته ، وهى تصيح فى انفعال عنيف :

ـ الأوغاد يملكون كل شبكات الإعلام .. يملكون كل السموات المفتوحة .. كم أنت رائعة يا حرية التعبير ، كم أنت رائعة ومتاحة !

كانت تصيح بعبارتها الأخيرة وهى تفرد ذراعيها إلى السماء التى احتجبت فيها الشمس خلف غيمة كبيرة ، عندما أتاها الصوت من خلفها بلكنة إسبانية واضحة :

ـ سنيورا (كارلا) ؟! (كارلا روبرتس) ؟!

التفتت (كارلا) إلى الصوت مقطبة وهى تتساءل :

ـ من ؟! من تكون ؟!

كان رجلا أسمر الملامح ، أسود العينين ، طويل الشعر أسوده يصففه إلى الخلف ، ويرتدى معطفًا شتويًا ثقيلا ، وينظر إليها باسمًا فى هدوء ..

ـ هناك من أرسلنى إليك ..

انعقد حاجباها أكثر إذ تتساءل :

ـ ماذا تعنى ؟! من أرسلك ؟!

اتسعت بسمة الرجل وهو يجيب :

ـ شخص يرفض التصريح عن نفسه مؤقتًا ..

ـ وماذا يريد ؟!

ـ لقاء خاصًا ..

ـ والسبب ؟!

ـ إعجابه بإنجازك الرائع على شاشة المحطة الإخبارية التى تعملين فيها ..

ـ لم أعد أعمل فيها بعد الآن ..

ـ إنه يعرف ؛ لهذا أرسلنى إليكِ ..

ـ وكيف عرف ؟! إن هذا قد حدث منذ زوج من الدقائق فحسب !

ـ إنه يعرف ، وربما يريد أن يعرض عليك عملا آخر فى مكان آخر .. هكذا طلب منى أن أخبرك بالحرف الواحد ..

ـ ربما ؟!

ـ ربما !

ـ ليكن ، أين يريدنى أن أقابله ؟! ومتى ؟!

ـ الآن ، تفضلى معى يا سيدتى فى سيارتى المتواضعة ..

وأشار الرجل إلى سيارة (لينكولن) فارهة تربض فى نهاية الشارع القريب ، توترت (كارلا) لمرآها غير أنها سارت بجوار الرجل الذى واصل :

ـ يمكنك أن تنادينى (سانتياجو) .. تفضلى يا سيدتى ..

وفتح (سانتياجو) باب السيارة لتدلف (كارلا) ، واستدار هو راكبًا إلى جوارها دون أن تزول بسمته ، ثم أشار للسائق الذى انطلق بالسيارة ..

ـ لم تخبرنى أين سنقابل رجلك هذا ..

ـ عذرًا يا سيدتى ..

قالها (سانتياجو) ، ثم أطلق رذاذًا على وجهها من بخاخة صغيرة فى يده ظهرت فجأة ، لتخر فاقدة الوعى على مقعد السيارة الجلدى فى سيرها بشوارع (مدريد) المزدحمة :

ـ المعرفة على قدر الحاجة .. هذه قواعد العمل مع (رجل الليل) !

★ ★ ★

القاهرة ـ ١٩٧٧

ـ مـاذا ؟!

هتف بها السيد (منصور) فى ذهول ، وتبعه السيد (عفت) الذى غمغم مبهوتًا :

ـ اعتقدت أن المشروع قد مات بعد أن صوتنا جميعًا ضده منذ أكثر من عامين تقريبًا !

هز الرجل الكبير رأسه الذى اشتعل شيبًا خلف مكتبه الخشبى ، ومط شفتيه قائلاً فى أسف :

ـ صحيح ، وقد كنت واحدًا ممن صوتوا ضده شخصيًا فى ذلك الاجتماع .. لكن !

تنهد الرجل قبل أن يواصل :

ـ السيد (فهمى) عنيد بطبعه ، ويبدو أنه قد استطاع إقناع القيادات العليا من خلفنا بتبنى المشروع على سبيل التجربة ..

عاد (منصور) يهتف :

ـ لكن هذا تجاوز للسلطات والمناصب الوظيفية ..

هز الرجل رأسه يمنة ويسرة فى أسف ، قبل أن يقول :

ـ لا يمكنك استخدام هذه الورقة حين يكون الأمر صادرًا من أعلى سلطة فى البلاد !

غمغم (عفت) ببهوت أكبر :

ـ رئيس الجمهورية ؟!

ومن خلفه (منصور) :

ـ حقًا ؟!

فسر لهما الرجل الكبير بقوله :

ـ يبدو أن التقارب قد حدث بينهما منذ واقعة (انتفاضة الحرامية) فى يناير الماضى ، فالسيد (فهمى زهران) كان ذا يد طولى فى القبض على مثيرى الشغب والحصول على اعترافاتهم موقعة ، وتقديمهم للمحاكمة التى يبدو أنها سوف تستمر طويلاً ..

قال (عفت) فى ضيق :

ـ لم تكن كما وصفها الرئيس المؤمن ، بل كانت انتفاضة شعبية ضد الفقر والجوع والغلاء الفاحش ، وسيثبت القضاء هذا مع مرور الوقت حتى ينال كل امرئ ما يستحقه ..

وقال (منصور) متجاوزًا هذه النقطة :

ـ وماذا سنفعل الآن ؟! لقد أصبح المشروع حقيقة واقعة إذن ..

قال الرجل الكبير :

ـ بمجرد عودة الرئيس من رحلته المفاجئة إلى (القدس) بعد إلقائه لخطاب الكنيست غدًا ، سيتم تفعيل المشروع فى إطار من السرية المطلقة ، إن السيد (فهمى) يرافقه الآن على رأس فريق تأمين الرحلة ، ومن هناك سوف ينطلق إلى (باريس) لبدء الخطوات الفعلية مع أكبر شركات التقنية هناك ، وبالتعاون مع المخابرات الأمريكية وجهاز الأمن الخارجى الفرنسى ..

تردد (منصور) مليًا قبل أن يسأل :

ـ وهل يوجد متطوعون ؟!

ـ لا يوجد حتى الآن ..

غمغم (عفت) فى أسى :

ـ ظننت أن السيد (فهمى) لن يعود للتفكير فى هذا الشأن ، خاصة بعد أن تزوج العام الماضى ..

قال الرجل الكبير مصدقًا على كلامه :

ـ الأدهى أن زوجته الآن حامل فى شهورها الأخيرة ، ومن المفترض أن مشاعر الأبوة قد بدأت فى التحرك داخله ، كيف يتصور أن يأتى أحدهم ليمنحه ابنه يفعل به ما يشاء ؟! هل بمقدوره أن يقدم هو ابنه لتجربة كهذه ؟! لقد فشلت فى فهمه .. فشلت تمامًا !

رفع (عفت) رأسه متسائلا :

ـ ألا يمكننا أن نفعل أى شىء كى نوقف هذه المأساة القادمة ؟!

قال الرجل الكبير :

ـ بالعكس ، أريدكما أن تكونا جزءًا منها ، جزءًا كبيرًا وفعالا بقدر الإمكان ..

سأل (منصور) دون أن يفلح فى إخفاء دهشته :

ـ كيف ؟! ماذا تعنى يا سيدى ؟!

تنهد الرجل قبل أن يقول :

ـ ما دمنا عاجزين عن إيقاف المشروع ، فلنكن قريبين إذن لنتابع كل شىء ؛ حتى لا تخرج الأمور عن السيطرة ، وربما استطعنا تقليل المخاطر إلى الحد الأدنى ، أو نسفه من الداخل مثلا ، من يدرى ما قد تسفر عنه الأمور ؟!

فكر (عفت) هنيهة قبل أن يقول :

ـ ربما ينتهى المشروع من تلقاء نفسه عندما لا يتم العثور على متطوعين ..

قال (منصور) بعد أن فكر هنيهة هو الآخر :

ـ حدسى أن السيد (فهمى) لن يدع مشروعه يفشل مهما كانت الأسباب ..

هز الرجل الكبير رأسه بالإيجاب وقال :

ـ أنا متفق معك ، لن يدع (فهمى) مشروعه يفشل ، ومهمتكما سوف تكون المراقبة عن قرب تحت غطاء رسمى من الإشراف والمتابعة حتى لا تضطر الظروف (فهمى) أو (صالح) لكسر القانون تحت أى مسمى ، أو إدخال متطوع لا تنطبق عليه الشروط الصريحة التى وضعاها فى دراسة المشروع المبدئية ، هكذا يمكن أن نشكل فارقًا مع الوقت ..

تبادلوا نظرات واجفة ، فى صمت ران على الحجرة ليزيد جوها توترًا فوق توتر ..

وكان السيد (منصور) هو أكثر من أحس بأنهم مقبلون على مرحلة جديدة ، ومختلفة تمامًا من الصراع الداخلى فى هذه الهيئة الأمنية الفريدة من نوعها ..

إن ما سيأتى لن يشبه ما مضى بأى حال ..

هذا المشروع السرى سوف يغير أشياء كثيرة لا يعرف كنهها بعد ..

لكنه يشعر بها ..

تمامًا كما تشعر أنت باهتزاز القبضان قبل مرور القطار القادم من بعيد ..

★ ★ ★

القاهرة ـ الوقت الحاضر ..

انهمك اللواء (عفت حفنى) مدير إدارة المهام الخاصة ، المكتب (١٧) ، فى متابعة المراسل الأشقر لشبكة (فى . بى . سى . نيوز) على شاشة تليفزيون مكتبه ، وهو ينقل رسالة (مدريد) بتلعثم من لا يملك خبرة ، أو كاريزما ، أو حتى موهبة :

ـ السيد (بامفورد) ما زال يصارع الموت فى المستشفى الملكى بعد محاولة اغتياله فى السفارة الأمريكية هنا ليلة أمس ، وما زالت السلطات الأمنية تبحث عن رابطة ما بين الأصوليين الإسلاميين وهذه العملية ، فيما ننتقل الآن إلى (الولايات المتحدة) ، بالتحديد إلى البيت الأبيض لنقل خطاب الرئيس الأمريكى إلى العالم ..

غمغم اللواء (حفنى) :

ـ أين ذهبت المذيعة الحسناء ؟!

ورن جرس هاتف مكتبه فى نفس اللحظة التى ظهر فيها وجه الرئيس الأمريكى على الشاشة ، فأخفض اللواء (حفنى) صوت التلفاز ورفع السماعة :

ـ من ؟!

وما إن حمل له الصوت المتحدث اسمًا ، حتى هتف فى قوة مباغتة :

ـ هنا .. أدخلوها على الفور !

ولم تمض ثوان حتى كانت المرأة العجوز ذات الملامح الطيبة ، والشعر الفضى ، المتدثرة فى ثياب شتوية ثقيلة ، تدلف إلى مكتبه ماشية فى وهن ، وقد نهض واقفًا ليستقبلها باسمًا فى أريحية :

ـ مرحبًا ، وألف مرحب ، تفضلى بالجلوس يا سيدتى ..

جلست المرأة ، وأخذت تجاهد لالتقاط أنفاسها وهى تقول :

ـ شكرًا يا سيادة اللواء ..

ـ ماذا تشربين ؟

ـ لا شىء ، دعنا من المجاملات ، حاولت الاتصال بالهاتف لكنكم لا تردون هنا بسهولة ، وقد جئت خصيصًا بعد أن شاهدت الأخبار على شاشات القنوات الفضائية حتى أطمئن عليه !

ـ تعنين (عمر زهران) ؟!

نظرت إليه بعينين عميقتين ، وقالت :

ـ وهل لى سواه ؟! وهل للأم سوى ابنها الوحيد ؟!

زفر اللواء (حفنى) فى حرارة ، وطرق بأصابعه على سطح مكتبه قبل أن يقول :

ـ الواقع يا سيدتى ، أننا أمام موقف حرج بعض الشىء الآن ..

سألت المرأة وقد امتقع وجهها :

ـ هل أصابه مكروه ؟!

ـ لا نعلم على وجه الدقة ، لكن هذا ليس الموقف الحرج الذى أتحدث عنه يا سيدتى ..

ـ ماذا تعنى إذن ؟!

سألت المرأة وقد اصفر وجهها وكاد قلبها أن يتوقف عن الخفقان ، وحاول اللواء (حفنى) أن يكون صريحًا قدر استطاعته ، ولينًا قدر استطاعته فى الوقت نفسه :

ـ أعنى .. أنه ربما .. أعنى ربما يكون (عمر) الآن قد عرف كل شىء !

ارتفع حاجباها عاليًا ، وحاكى شحوب وجهها الموتى أو مصاصى الدماء وهى تسأل بنبرات متحشرجة :

ـ (عمر) .. عرف كل شىء ؟!

ـ لسنا واثقين تمام الثقة ، لكن نسبة مئوية لا بأس بها تفترض أنه قد عرف بأمر المشروع السرى على الأقل ..

ـ (عمر) .. عرف أننى .. لست أمه ؟!

ـ لا يمكننى الجزم بهذا ، لكن معرفته بأمر المشروع ستستتبع عددًا لا بأس به من الأسئلة بالتأكيد ، وعلينا أن نأخذ الحذر ..

أطرقت المرأة مسددة عينيها إلى الأرض ، وقالت فى فيضانها المفاجئ بالدمع الغزير :

ـ لم يعد (عمر) ابنى ثانية إذن ..

ـ آسف يا سيدة (عزة) ، لكن خدعة كهذه لم تكن لتستمر إلى الأبد ..

ـ لم يعد لى أحد فى هذه الدنيا !

ـ أعلم أنه كان الحياة بالنسبة إليك بعد طلاقك من السيد (منصور حرب) ، لكن .. كنا سنبلغ لحظة التنوير هذه إن آجلا أم عاجلا ..

ضمت السيدة (عزة) قبضتها على ياقتى ثوبها ، وقالت مغالبة حزنها الجارف وذارفة المزيد من الدموع :

ـ كيف سيتحمل صدمة كهذه ؟! كيف ؟!

ـ الفتى قوى الشكيمة ، سيتجاوز الأزمة طال الوقت أو قصر ، إننى واثق من أنه سيتجاوزها ..

وقبل أن تنطق السيدة (عزة) بكلمة أخرى ، ارتفعت الطرقات على الباب ، فهتف اللواء (حفنى) :

ـ ادخل ..

اندفع (نادر الشريف) إلى الغرفة هاتفًا بصوته الجهورى :

ـ أنباء جديدة غاية فى الأهمية يا سيادة اللواء ..

ـ ماذا هناك ؟!

ـ السجين ..

ـ (روى باور) ؟!

ـ أجل ..

ـ ماذا عنه ؟!

ـ التشنجات توقفت ، ويبدو أنه قد استعاد ذاكرته بالكامل ..

ـ حقًا ؟! هل خضع لكشف طبى دقيق ؟!

ـ على أيدى فريق من أكبر أطباء الإدارة ، وهو يريد لقاءك شخصيًا يا سيدى ..

ـ لقائى شخصيًا !

ـ طلب أن يرى الرأس الكبير هنا بلغة العصابات التى يتحدث بها ، وذلك ليتفاوض بشأن إطلاق سراحه فى مقابل يستحق أن يمنحنا إياه ، وقد رفض التصريح عن كنه هذا المقابل ، لكنه ليس أموالا .. أنا هنا أستخدم عباراته بدقة يا سيادة اللواء !

صمت ..

تفكير ..

ثم :

ـ ليكن ، سأقابله ، أعدوا لنا مكانًا مناسبًا !

★ ★ ★

باريس ـ ١٩٧٩

الشقة تطل على برج (إيفل) وبجواره قوس النصر مباشرة ، لكن أحدًا داخلها لم يكن فى حالة تسمح له بالاسترخاء والتأمل فى عظمة المعمار أو شموخ التاريخ ..

شاشة التلفزيون فى منتصف الصالة تعرض وقائع توقيع معاهدة (كامب ديفيد) ، الابتسامات والمصافحات والرغبة الظاهرية فى السلام ، وما فى القلب فى القلب ، بيننا مساحات واسعة من الدم والثأر والشهداء لكن السياسة لا تعرف إلا اللحظة الراهنة ، وما تحت الطاولة أدهى وأمر بالتأكيد ، بينما التاريخ يسير فى مجراه الحتمى الذى ليس بوسع أحد إيقافه ..

هكذا فكر السيد (منصور) وهو يسترخى فى مقعده أكثر ، دون أن يغفل للحظة عما يجرى عند الطاولة فى طرف الصالة الآخر ..

كان السيد (فهمى زهران) يحمل جسمًا دقيقًا للغاية بين إصبعيه السبابة والإبهام ، ويقربه من عينيه اللتين التقت حدقتاهما بجوار أنفه ، ويغمغم بالفرنسية فى لهجة ثابتة يحاول من خلالها مداراة انبهاره :

ـ أيملك هذا الجسم الدقيق كل القدرات الخارقة بالفعل ؟!

ابتسم الفرنسى الأنيق ذو العينين الزرقاوين والبشرة البيضاء النقية والملامح الأوربية الهندسية ، وهو يقول متراجعًا إلى ظهر مقعده فى فخر :

ـ بين إصبعيك يا سيدى فخر الصناعة الفرنسية تقدمها شركة ماربل للتقنيات ، شريحة إلكترونية سابقة لأوان إنتاجها على مستوى السوق التجارى بعشرة أعوام على الأقل ، وتمكنك من الغوص فى أعماق المخ البشرى بالمعنى الحرفى للعبارة ..

لم يفلح السيد (صالح) فى إخفاء ذهوله وهو يحدق فى الجسم الصغير مغمغمًا بدوره :

ـ لم أتصور أبدًا أن تكون بهذا الحجم ..

اتسعت بسمة الفرنسى وهو يقول ملوحًا بيده فى رقة يتميز بها أبناء جلدته :

ـ ستذهل أكثر عندما تراها تعمل ، لقد عملنا مع المخابرات الأمريكية لتطويرها مدة عشرين عامًا كاملة حتى تبلغ هذا الحجم بهذه الإمكانيات ، وكانت نتيجة السيطرة على العملاء الذين زرعت الشريحة فى رءوسهم فوق مستوى التوقعات بكثير ..

هز الدكتور (نبيه) الجالس على مقربة من الطاولة رأسه ، وقال مؤيدًا :

ـ لقد شاهدتهم بنفسى ، وأستطيع أن أعترف بذلك أنا الآخر يا مسيو (دوبويه) ..

غمغم (منصور) من جلسته أمام التلفاز ، محافظًا على استحدام نبرة لا يسمعها أحد :

ـ أجهل ما قد تستطيعون بلوغه بعد عشرين عامًا أخرى أيها الأوغاد !

قال (دوبويه) وهو يحمل قبعته مستعدًا للنهوض :

ـ تبقى الآن المرحلة الأهم والأخطر أيها السادة المحترمون ، متى سيحضر أول المتطوعين لإجراء العملية الجراحية ؟!

اربد وجه (فهمى) ، وهتف (صالح) فى ارتباك جلى :

ـ قريبًا .. قريبًا للغاية يا .. إحم .. سيدى !

نهض (دوبويه) وهو يقول ملوحًا بيده :

ـ حاولوا أن تسرعوا قليلاً ، فأجهزة العالم السرية تتسابق الآن من أجل شراء التقنية ، ولن أستطيع إقناع مجلس الإدارة بالانتظار طويلا حتى نتمم مشروعكم أولا كما اتفقنا ..

قال (فهمى) فى ضيق :

ـ إننا لا ندفع لكم مبالغ هينة فى مقابل هذا الانتظار يا مسيو (دوبويه) !

ـ ومن قال إن النقود هى كل شىء يا سيدى ؟! نحتاج لرؤية النتائج ميدانيًا حتى نطور من أدائها ، والتوقف يعنى

خسارة الوقت ، وخسارة الوقت ليست إلا خسارة أموال فى النهاية ، أغلب أعضاء مجلس الإدارة مقتنعون بهذا رغم الجهد الذى أبذله لجعلهم ينتظرون ..

ـ لن تنتظر طويلا ، هذا كل ما أستطيع أن أعدك به !

قالها (فهمى) فى تحد ، وهو ينهض مصافحًا (دوبويه) ..

ـ أتمنى هذا ، حظًا سعيدًا ..

وغادر (دوبويه) الشقة كلها ، لينفجر (فهمى) بعدها صائحًا :

ـ عامان كاملان ولم نعثر على متطوع واحد ! أى عبث !

غمغم الدكتور (نبيه) فى خفوت :

ـ لم ينته العامان بعد ..

ولم يسمعه (فهمى) لحسن الحظ ، فيما قال (صالح) بلهجة هادئة معتدلة :

ـ لقد بذلنا كل ما فى وسعنا يا (فهمى) ، عرضنا مكافأة ضخمة على المتطوعين ، وبمجرد أن يعرف الأهل بما سيحل بالطفل ينسحبون على الفور مهما كانت حالتهم الاقتصادية متدنية !

أرسل (فهمى) بصره إلى برج (إيفل) من زجاج النافذة ، وقال مضيقًا عينيه :

ـ لا بد من أن نجد حلا ، لن أسمح بتوقف المشروع بعد أن قطعنا فيه هذا الشوط ، وبعد كل الأموال التى أنفقتها الدولة عليه ..

ارتفع صوت (منصور) من ركنه البعيد أخيرًا :

ـ أى خرق لقواعد التطوع التى وضعتموها بأنفسكم غير مقبول ، لو أن هذا ما تفكر فيه يا عزيزى ..

قال (فهمى) دون أن ينظر إليه ، ودون حتى أن يلتفت إلى محدثه :

ـ لن أكون فى حاجة إلى هذا ..

ومرت الذكرى أمام عينيه سريعة كلمح البصر ، دون أن تثير فيه أدنى شجن ، وإنما المزيد من العزم والحماس والإصرار ..

بعد زيارة (القدس) قبل عامين ، وفور وصوله إلى (القاهرة) ، كانت زوجته تضع طفلهما ..

(عمر) ، هكذا اختارت اسمه قبل أن ...

(عمر فهمى زهران) الذى لم يرها ، لأنها ماتت إثر انفجار الرحم أثناء الولادة..

لم يرها قبل أن تدفن ، ولم يذرف عليها دمعة حزن واحدة ، ولم يقض بجوار طفله الكثير من الوقت فى خضم انشغاله الرهيب بعمله ..

والآن فى سن العامين ، تربى شقيقته (فايزة) ابنه (عمر) الذى تضيق به ذرعًا أحيانًا مع ابنيها وزوجها الموظف الملول ذى الموارد المحدودة ، الذى لولا سلطة (فهمى) لألقى بطفله ــ وربما بشقيقته المتذمرة دائمًا وابنيها ــ على قارعة الطريق دون تأنيب ضمير ..

نعم ، (عمر) ، ابنه ، سيفى بالغرض ..

سنوات عمره مناسبة الآن لإجراء الجراحة ، مناسبة تمامًا ..

ستؤهله هذه الجراحة لأن يكون يومًا رجل أمن من نوع خاص لا يشق له غبار ..

سيكون هو العينة الناجحة التى سوف تشجع الكثيرين على الاطمئنان على مستقبل أبنائهم بنفس الطريقة ، وربما يؤدى نجاح العملية إلى تهافت المتطوعين لا إحجامهم مثل الآن ..

نعم ، هكذا يمكن أن نجد نقطة بداية قوية ..

حسم (فهمى) أمره ، والتفت إلى (صالح) قائلاً :

ـ استعد ، فسنعود إلى (القاهرة) فى أول طائرة ..

هز (صالح) كتفيه ، والتفت (فهمى) إلى الدكتور (نبيه) متابعًا فى صرامة :

ـ أنت ستبقى هنا يا دكتور ، سنعود إليك بعد يومين على الأكثر ومعنا المتطوع المطلوب ..

التفت (منصور) إلى (فهمى) سائلا فى تقطيبة شك :

ـ ماذا ستفعل يا (فهمى) ؟!

التفت (فهمى) إليه قائلاً فى برود :

ـ لا تقلق يا عزيزى ، كل شىء سيتم وفق القانون ، لا تقلق أبدًا ..

نهض (منصور) قائلاً :

ـ سأعود معكم إذن ..

ـ على الرحب والسعة ..

قالها (فهمى) وهو يحدق فى الشاشة التى تعرض اللقطة التاريخية للرئيس (السادات) يصافح (مناحم بيجن) وبينهما (جيمى كارتر) ، ويقول لنفسه إنه صحيح تخلف عن مصاحبة موكب تأمين الرئيس هناك ، لكن لهدف أسمى ..

المشروع السرى سيخرج إلى حيز الوجود فى غضون أيام قليلة ، صحيح أن التاريخ قد يهمل اسم من أوجده ، لكن !

من قال إنه يريد خلودًا ؟!

كل ما يريده هو النجاح ؛ لأن الفشل كلمة لن توضع فى سجله أبدًا ..

ما دام حيًّا !!

★ ★ ★

باريس ـ الوقت الحاضر ..

استيقظتْ فجأة !

انفتحت العينان عن حدقتين ملونتين متسعتين مثبتتين فى السقف ..

اعتدلت فى جلستها وهى تشهق فى فزع ، ونظرت حولها كالمحمومة لترى الجدران البيضاء وبلاط الأرض الأبيض وملاءة السرير البيضاء التى تجلس عليها ، وثوبها الأبيض أيضًا الذى يشبه ملابس الداخلين إلى غرف العمليات الجراحية !

كل شىء أبيض إلى درجة مستفزة ، وللغرابة فهى لا تذكر شيئًا من هذا ..

آخر ما تذكره أنها كانت فى (رومانيا) مع (عمر) فى مهمة أخرى ، وتم اختطافها من داخل الفندق ، قبل أن ...

بعدها يتلاشى كل شىء ..

فأين هى الآن ؟!

وما هذا الألم الرهيب الذى يعتصر رأسها اعتصارًا ؟!

الغرفة صغيرة للغاية ، لا تحوى إلا مرآة معلقة عند الجانب الآخر بحيث لا ترى انعكاس وجهها فيها من هذه الزاوية ، وهناك منضدة معدنية ذات عجلات مدهونة باللون الأبيض هى الأخرى بجوارها ، من النوع الذى تدفعه الممرضات أمامهن فى المستشفيات ، وهناك طبق كبير من المعدن الفضى فوق المنضدة ، تعجز عن مد رأسها لإلقاء نظرة على ما يحويه ..

الألم يعتصر رأسها اعتصارًا ..

أطلقت آهة ألم ، ورفعت يدها بصعوبة لتتحسس رأسها ، قبل أن تشهق فى فزع رهيب وهى تحسس رأسها بقوة أكبر ، ثم إنها تحاملت على نفسها ونهضت مصطدمة بالمنضدة المعدنية ، ومترنحة سارت نحو المرآة ، لتتحول شهقتها الفزعة إلى صرخة مدوية ..

لقد أفزعها ما رأته إلى حد أنها كادت تفقد وعيها ..

إنها صلعاء تمامًا !!

أحدهم قام بقص شعرها الطويل أثناء غيبوبتها ، وليت الأمر انتهى عند هذا الحد ، بل إن هناك رباطًا من الشاش الأبيض الكثيف يحيط برأسها ، وبقع الدم تلوثه فى غير مكان ، كأنها اصطدمت بشىء ما وتم تضميد جرحها بعناية ، أو ...

أو أنها قد مرت بعملية جراحية على رأسها فى أثناء غيبوبتها !

استدارت محاولة التعلق بأى شىء حتى لا تسقط من الإجهاد والألم ، وهنا انتبهت لحقيقة أكثر إفزاعًا ..

الغرفة !

دعك من أنها لا تحوى نوافذ..

هذا متوقع ..

لكن !

ألا تحوى بابًا ؟!

كيف أتت إلى هنا إذن ؟!

نظرت إلى السقف لترى مروحة تدور ببطء وتطرد الهواء عبر فتحة تهوية ، ورأت بجوارها كاميرا فيديو مثبتة عليها ، وتدور مع كل حركة تأتى بها كأنها تلاحقها !

ـ يبدو أنك استيقظتِ أخيرًا يا آنسة (دينا) !

دوى الصوت بالعربية عبر مكبر مثبت فى ركن السقف فوق السرير ، فصرخت (دينا) مجددًا وهى تخفى وجهها بكفيها ، قبل أن يميز عقلها المجهد الصوت بصعوبة ، فتسأل فى نبرات يأكلها الرعب :

ـ من ؟! من أنت ؟!

ـ ظننت أنك ستميزين صوتى على الفور..

سألت فى تردد :

ـ (عمر) ؟!

هو صوت (عمر) بالفعل ، لكنه يتحدث بأسلوب غريب لم تعهده فيه من قبل ، ناهيك عن الضحكة المدوية التى انطلقت ودوى بعدها الصوت مرة أخرى :

ـ كنت واثقًا فى فراستك يا عزيزتى (دينا) ..

ـ ما الذى يجرى ؟! أين أنا ؟! وكيف أتيت إلى هنا ؟!

ـ هذه قصة طويلة ، لن تشفى غليلك بالطبع إجابات من نوعية أنك فى (باريس) وأنك قد أتيت إلى هنا بعد أن قمنا بتهريبك من (القاهرة) ، خلف قناع لوجه امرأة محترق !

انهارت (دينا) متكومة فوق الأرض ، وقد استبد برأسها الألم وعجزت ساقاها عن حملها ، قبل أن تطلق آهات ألم متواصلة ، وتجاهد حتى تقول :

ـ ما .. الـ .. ذى .. يجـ .. ـرى ؟!

ـ هونى عليك ، وحاولى أن تتماسكى ، لقد مررت بعملية جراحية صعبة قبل قليل فى قاع الجمجمة ، وأعتقد أنك فى حاجة إلى الراحة !

أمسكت (دينا) رأسها بكفيها وهى تصرخ فى ألم :

ـ كلا .. هذا كثير .. عملية جراحية .. فى المخ !

أتاها صوت (عمر زهران) عبر مكبرات الصوت بلا مشاعر :

ـ كان يجب أن نجرب عملية انتزاع جسم غريب فى مخك قبل أن نعمم التجربة ، وأعتقد أنك تبلين بلاء حسنًا ، فقط لو منحت نفسك بعض الراحة ستتجاوزين هذه المرحلة بسرعة ، إننا لم نضطر إلى نشر عظام جمجمتك بعد تطور الجراحات الميكروسكوبية بواسطة الروبوت مؤخرًا لحسن الحظ ..

صرخت (دينا) فى ألم وهى تكابد الحقيقة المرة :

- جسم غريب فى مخى ! ماذا تقول ؟!

بلا مشاعر أتاها صوت (عمر زهران) عبر مكبرات الصوت :

- تستطيعين إلقاء نظرة عليه فى قاع الطبق على المنضدة المجاورة لسريرك يا عزيزتى !

نظرت (دينا) إلى المنضدة التى اندفعت عندما اصطدمت بها قبل قليل بعيدًا عن السرير ، وانتزعت نفسها من تكومها فوق الأرض بصعوبة ، لتتابعها كاميرا السقف فى ترنحها نحوها حتى اصطدمت بها مجددًا ، وسقط الطبق على الأرض لينسكب السائل الشفاف فى داخله ، وليستقر جسم ضئيل للغاية فوق الأرض بجوارها حيث سقطت ..

زحفت (دينا) بصعوبة وتابعتها كاميرا السقف ، حتى أمسكت بالجسم الضئيل بين إصبعيها ، ونظرت إليه فى غير تصديق ..

شريحة إلكترونية ؟!

شريحة إلكترونية فى قاع جمجمتها ؟!

آلاف الأسئلة ، لكنها لم تعد تحتمل ..

لقد سقطت فاقدة الوعى من جديد ، بينما استقرت الكاميرا فى السقف على موقع سقوطها ، ولم يعد صوت (عمر زهران) يدوى فى أنحاء الغرفة الصغيرة للغاية !

★ ★ ★

باريس ـ ١٩٨١

نظر السيد (منصور) إلى سطح فنجان قهوة (الاسبرسو) الفرنسية التى بردت دون أن يمد إليها يدًا ، يحاكى فى جلسته تمثالا بوذيًا بصمته المعتاد ، فيما يختزن عقله فحوى الحوار الفرنسى الدائر إلى جواره بُدقة ، وسبابته اليمنى تداعب خاتم زواجه الفضى فى بنصره الأيسر ..

ـ وأين مسيو (فهمى) ؟! لِمَ لم يأتِ للمتابعة بنفسه هذه المرة ؟!

ـ ألا تتابع الأخبار يا مسيو (دوبويه) ؟! لقد تم اغتيال رئيس بلادنا أثناء الاحتفال بأعياد النصر منذ بضعة أيام ، والسيد (فهمى) لا يستطيع مغادرة البلاد فى ظروف كهذه .. إنها لمعجزة أن نستطيع الحضور إليك لمتابعة التطورات ..

ـ لا بأس ، ولتطمئننا أن التطورات تسير على خير ما يرام يا عزيزىّ مسيو (صالح) ومسيو (منصور) ..

لم ينبس (منصور) ببنت شفة وهو يحدق فى اللوحة القائمة على صدر المكتب الذى يجلس خلفه الفرنسى ، حاملة اسمه الثنائى (دوبويه تشايمر) ، ومنصبه بالفرنسية (رئيس مجلس إدارة مابل للتقنيات) ، ثم نقل بصره إلى صورته المؤطرة التى تصوره باسمًا يحتضن طفلة صغيرة تحمل ملامحه دون ابتسامته ؛ فى ذهولها البرىء وهى تنظر إلى العدسة ، ويبدو أن (دوبويه) قد لاحظ نظراته فتبرع بالقول :

ـ ابنتىَ الوحيدة (مادلين) ..

هذا رجل ينتهز أى فرصة إذن للحديث عن نفسه وعائلته ، ذلك الصنف من البشر الذين يمقتهم (منصور) ، ومع هذا فقد ابتسم قائلاً كما تقضى بروتوكولات الدبلوماسية :

ـ بنت جميلة ..

ـ ومهووسة بالتقنيات مثلى رغم أنها لم تتجاوز العشرة أعوام بعد !

البروتوكلات الدبلوماسية :

ـ جميل !

نهض (دوبويه) قائلاً وهو يشير بيده إلى خارج غرفة مكتبه :

ـ تفضلا معى أيها السيدان لتشاهدا ما أتيتما لمشاهدته ..

وتقدمهما عبر ممرات الشركة التى تقوم على جدرانها ملصقات الدعاية الخاصة بمنتجاتها المطروحة فى الأسواق ، من تقنيات كانت حديثة فى مطلع الثمانينيات مثل أجهزة الفيديو المنزلى والإنذار المبكر والهواتف الرقمية والمسجلات الصغيرة الحجم ، وشعار الشركة يتناثر بين كل خطوة وأخرى حتى أقلهم المصعد إلى قبو الشركة فى الطابق الثانى تحت الأرض ، وهناك قادهما (دوبويه) فى خطوات واثقة تشبه الرقص الإيقاعى على أنغام الأوركوديون الفرنسى حتى باب غرفة مغلق فى إحكام ..

ـ إننا نحاول أن نوفر له جوًا عاديًا حتى ينتقل إلى (القاهرة) لديكم مع مطلع العام الجديد ، حيث تبدأ برامج الإعداد والتأهيل الموضوعة بعناية ، ستذهلكم النتائج عندما ...

قاطعه (منصور) فى ضجر :

ـ نريد أن نرى الطفل من فضلك ولنثرثر بعدها كما أحببنا !

بهت (دوبويه) للهجة الرجل الذى سكت دهرًا ، ولم يشعر (منصور) بأدنى قلة ذوق من جانبه وهو يسمعه يقول فى حرج احمرت له وجنتاه :

ـ بالطبع ، مسيو (منصور) ..

وضغط أزرار مجاورة للباب قبل أن يدفعه فى هون لينفتح على الفور ..

ـ تفضلا ..

دخل (منصور) أولا وخلفه (صالح) ثم (دوبويه) ، ومن خلف جدار زجاجى هائل ظهرت حجرة معيشة صغيرة ، مؤثثة جيدًا ببعض الأرائك والسجاجيد والديكورات المنزلية ، وهناك قناة تلفزيونية مفتوحة على فيلم أمريكى ملىء بالعنف وطلقات الرصاص ..

على مقعد جلدى وثير رأى (منصور) طفلا فى ملابس منزلية مستلقيًا على ظهره ، يمسك بمجلة قصص مصورة ويقلب صفحاتها فى اهتمام ، فاقترب من الحاجز الزجاجى ومد يده كأنه يحاول لمس الطفل من بعيد..

ـ هذا زجاج عاكس بحيث نستطيع رؤية ما يجرى فى الداخل ، دون أن يستطيع من فى الداخل رؤيتنا ، بالنسبة له سيرى جدارًا عاديًا مصمتًا !

سأل (صالح) وهو يحدق فى الطفل ذاهلا :

ـ وهل يستطيع القراءة فى هذا السن ؟!

أجابه (دوبويه) :

ـ كلا بالطبع ، ليس سن الأربع سنوات بصالح لتعلم القراءة ، لكن الطفل (عمر) يبدى اهتمامًا كبيرًا بالمجلات والصحف وبرامج التلفزيون الدرامية ، وعليه فربما تمكن من قراءة المجلة التى يحملها فى العام القادم على الأكثر لو عاونتنا الشريحة الإلكترونية على تحسين قدراته المعرفية كما نصبو ..

ملأ (منصور) عينيه منه ، الرأس الحليق منذ دخل غرفة العمليات قبل عامين حتى الآن ، العينان الذكيتان الحادتان ، وبراءة الأطفال التى انتهكتها أيدى الكبار من أصحاب الأحلام الكبيرة والطموحات الواسعة..

لمس الخاطر وترًا مؤلمًا فى أعماق (منصور) ، جرحه الشخصى وجرح زوجته بعد كل هذه السنين من الزواج دون طفل ، حتى بلغت بهما الحياة طريقًا مسدودًا خاصة مع

انشغاله المستمر حتى النخاع فى العمل ، والفراغ الذى يأكل حياتها هى دون طفل جاءت إلى الدنيا خصيصًا لتحمله وتربيه كأى أنثى ..

عاود (منصور) العبث فى خاتم الزواج بإصبعه الأيسر ، وأطلق تنهيدة قصيرة :

لو كان لديه طفل كهذا ، فلن يمنحه لتجربة كهذه مهما حدث ..

مهما حدث ..

الوغد (فهمى) لا يعلم أى نعمة أعطاها له الله ـ (سبحانه وتعالى) ـ ليفرط فيها هكذا بكل سهولة ودون أدنى تردد ..

الوغد !

انتبه (منصور) إلى (دوبويه) وهو يقول :

ـ إننا نضعه تحت المراقبة والإشراف المستمر لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم الواحد ، ومنذ أجرينا له الجراحة قبل عامين لم تحدث أى مضاعفات ، بل إن معدلات نموه الحركى والاجتماعى والإدراكى فى تحسن ملحوظ بالنسبة لأقرانه من الأطفال ، مما يثبت جدوى العملية ويؤكد نجاح المشروع المرتقب ..

لم يقو (منصور) على سماع المزيد ، فغادر المكان فى سرعة واضعًا (دوبويه) فى موقف محرج للمرة الثانية فى أقل من خمس دقائق ، مما دعا (صالح) لأن يقول باسمًا :

ـ عذرًا يا مسيو (دوبويه) ، إن (منصور) متوتر قليلاً كما ترى ..

ـ لا عليك ، أتخيل كيف يشعر المرء حين يتم اغتيال رئيس بلاده !

اصطحبهما (دوبويه) إلى السيارة التى حضرا فيها فى مرآب الشركة الخاص ..

ـ سنلتقى مرة أخرى عند مطلع العام الجديد ..

قالها (دوبويه) ، وقال (صالح) :

ـ أجل ، وسنصحب معنا (عمر) عندها ..

ـ سيكون على أهبة الاستعداد ..

انطلق (منصور) بالسيارة يقودها فى سرعة ، وعاد (دوبويه) إلى الشركة ، لكنه لم يتجه إلى مكتبه مباشرة ، بل تجاوز بابًا مكتوبٌ فوقه بالفرنسية (ممنوع الدخول) أسفل شعار الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين ..

وراء الباب كان هناك ما يشبه المعمل المصغر ، واتجه (دوبويه) إلى رجل فضى الشعر واللحية يرتدى معطفًا أبيض وينظر فى ميكروسكوب ضوئى على أحد الطاولات المنتظمة فى صفوف داخل المكان ، ولم يكن هناك أحد سواه فى المكان المتسع كله ..

ـ كيف حالك يا دكتور (متشيل) ؟!

أجابه الدكتور دون أن يرفع عينيه عن منظار الميكروسكوب :

ـ بخير إن كان هذا ما أتيت للسؤال عنه حقًا يا عزيزى (دوبويه) ..

ـ فى الحقيقة هناك أمر آخر ..

ـ أعلم ، تريد الاطمئنان على سير تجربة صديقنا الفرعون الصغير ..

ـ أحيانًا أشعر أنك ذكى بما يكفى لتقاضى الراتب المهول الذى أدفعه لك راضيًا يا دكتور ..

رفع (متشيل) عينيه عن الميكروسكوب أخيرًا ، ونظر إلى (دوبويه) من خلف نظارته قائلاً :

ـ اطمئن ، كل شىء يسير على ما يرام ..

ولما لم يتحرك (دوبويه) ، أو حتى ينطق بكلمة ، أشار له (متشيل) :

ـ اتبعنى ..

بلغا خزانة معدنية ، سارع (متشيل) بفتحها وأشار إلى أنابيب الاختبار الملونة داخلها قائلاً :

ـ هذا كل ما يخص صديقنا من عينات يا عزيزى ..

ـ ليس هذا ما أريد الاطمئنان بشأنه ..

ـ أعلم ..

قالها (متشيل) ، ثم حمل أسطوانة معدنية كبيرة من قاع الخزانة أمام عينى (دوبويه) مكملا :

ـ هنا ما تسأل عنه يا عزيزى ..

ثم إنه وضع الأسطوانة فى وضع قائم على طاولة قريبة ، وهو يقول :

ـ يجب أن نحفظ الأنبوبة الخاصة بالتجربة تحت درجة حرارة معينة حتى ثمانية أسابيع تقريبًا ..

وأدار قمة الأسطوانة بحركة حذرة :

ـ بعدها نحقن الخلايا فى رحم امرأة ..

رفع قمة الأسطوانة ليتصاعد من أسفلها دخان التجميد ، وبرزت أيدى معدنية تحمل فى نهايتها أنبوب اختبار يحوى سائلا عكرًا ، و ...

ـ ويكون لدينا جنين مكتمل بعد تسعة أشهر ..

نظر (دوبويه) إلى الأنبوب ..

وبرقت عيناه بريقًا يحمل ألف معنى ..

وأكثر !

★ ★ ★

القاهرة ـ الوقت الحاضر ..

جالس على مقعد معدنى بحجمه الضخم ، أطرافه مقيدة بإحكام ، يرتدى ملابس زرقاء خفيفة تشبه ما يلبسه السجناء ، ولا ينقصه إلا القناع الشهير ليصبح شبيهًا بالدكتور (هانيبال ليكتر) فى (صمت الحملان) ..

هكذا رآه اللواء (عفت حفنى) عندما دلف إلى غرفة اللقاء الآمنة ، التى يتم تسجيل كل ما يدور فيها عبر كاميرات وميكروفونات ، ويقوم على حراستها اثنان بالداخل تحسبًا لأى طوارئ ، بالإضافة إلى أنها تقع داخل واحد من أكبر مبانى الهيئات الأمنية فى (مصر) كلها ..

المكتب (١٧) ..

جلس اللواء (حفنى) على مقعده الشاغر فى المواجهة ، يفصل بينهما منضدة خشبية وطيئة نوعًا ، وتحدث بالإنجليزية قائلاً :

ـ أردتَ أن نلتقى ، سيد (باور) ..

ابتسم (روى باور) بسمة صفراء ، وهو يقول بصوت مشروخ :

ـ أجل ، فور أن استعدت معرفتى باسمى طلبت لقاء الكبير هاهنا أيها السيد ..

قال اللواء (حفنى) :

ـ الأطباء يقولون إنك قد استعدت ذاكرتك بالفعل ، تهانئى القلبية ..

ـ أجل ..

قالها (روى باور) فى لهاثة ككلب منهك ..

ـ وهذا يضعكم فى مأزق قانونى يتعلق باعتقالى دون تهمة محددة ..

لوح اللواء (حفنى) بذراعيه وهو يقول :

ـ عن أى قانون تتحدث يا رجل ؟! لقد ارتكبت من الجرائم فى (مصر) وحدها ما يكفى لاعتقالك مدى عمرين فوق عمرك الطبيعى المتوقع .. أنت على رأس قوائم المطلوبين لدينا فى قضايا تجارة مخدرات وأسلحة وتجارات محرمة أخرى ، توقعت أنك تعرف ذلك .. ولا تتوقع منا أن نفرط فيك بهذه السهولة أبدًا ..

اكفهر وجه (باور) إذ قال :

ـ أنتم لا تدركون معنى وجودى هاهنا ، إنها نكسة اقتصادية مهولة فى أكبر بورصات العالم ، مؤسساتى الآن مثل الريش فى مهب الريح وهو ما قد يعرض أكثر من دولة لهزات عنيفة قد لا تتحملها ..

عاد اللواء (حفنى) يلوح بذراعيه قائلاً باستهانة :

ـ لا تقلق بشأن هذه النقطة أيضًا ، إننا ندير أعمالك بشكل طبيعى تمامًا فى جميع أنحاء العالم ، ربما بأفضل مما كنت تفعل أنت نفسك !

احتقن وجه (روى باور) وتشنجت عضلات جسده ، وأخذ يعض على شفتيه بقوة ، فنهض اللواء (حفنى) قائلاً فى لهجة عملية :

ـ هل تريد الاطمئنان على أى شىء آخر ، سيد (باور) ؟!

فوجئ بـ (باور) يقول بصوت انشرخ أكثر :

ـ أريد أن نصل إلى اتفاق ..

سأله اللواء (حفنى) مقطبًا :

ـ اتفاق من أى نوع ؟!

ـ من النوع الذى يرضى جميع الأطراف ..

وقف اللواء (حفنى) ناظرًا إليه للحظة ، قبل أن يعاود الجلوس قائلاً :

ـ ليكن .. أرنى ما لديك ..

افتر ثغر (باور) عن بسمة كريهة أخرى أكثر اصفرارًا :

ـ إن استعادتى لذاكرتى كنز لا يقدر بثمن ، فأنتم تعلمون بالطبع أنى تعاملت مع أجهزة سرية عالمية ، وسماسرة من جميع الأنحاء ، بل وكنت جزء من عمليات استهدفت ـ وبعضها لا يزال يستهدف ـ بلادكم ، بكم تقدرون هذه المعلومات فى رأيكم ؟!

ضيق اللواء (حفنى) عينيه :

ـ كم فى رأيك ؟!

ـ الدور عليك لترينى ما لديك ..

ـ لنقل ظروف سجن أكثر راحة !

ضحك (باور) قبل أن يقول :

ـ فقط ! يا لكم من بخلاء ..

ـ لاحظ أننا لم نقدر أهمية المعلومات التى تدعى حيازتها بعد ، وأننا لا نتهافت لمعرفتها بقدر ما تريد أنت المساومة عليها بشىء تريده ..

قال (باور) بأقصر الطرق مباشرة :

ـ ماذا عن مكالمة هاتفية ؟!

ـ ماذا ؟!

ـ أعطيكم بعض المعلومات الثمينة ، فى مقابل مكالمة هاتفية واحدة !

سأله (حفنى) بارتياب :

ـ لمن ؟!

ـ ستسمعون تفاصيل المكالمة حتمًا ، لندع كل شىء إلى وقته إذن ..

ثم اتسعت بسمة (باور) الشيطانية ..

ـ هه ؟! ما قولك ؟! أليست هذه صفقة عادلة ؟!

ران صمت ، (حفنى) يحدق كأنه يحاول اختراق عقل (باور) ، و(باور) يبتسم فى جذل كأنه مقبل على لعبة مسلية ..

ـ ليكن ..

قالها (حفنى) واقفًا ..

ـ .. سأرد عليك عندما أصل إلى قرار ..

وغادر الحجرة ، بينما بسمة (باور) تتسع أكثر ..

سيوافقون حتمًا ، هذا ما أخبره به حدسه الذى لا يخيب أبدًا ..

سيوافقون ..

وعندها ..

★ ★ ★

بيروت ـ ١٩٨٢

انهالت اللطمة على وجـه (فهمى زهران) الذى تحـول إلى لوحة تجريدية من الكدمات والدماء ، تأنَّ (فهمى) فى ألم رهيب ، بينما صاح فيه لاطمه بلهجة شامية ركيكة :

ـ ألن تعترف بالحقيقة أيها الـ ... ؟!

ـ كفى !

دوى الهتاف من جهة باب الغرفة فى الشقة الصغيرة بأحد شوارع (بيروت) التى اجتاحتها الدبابات الإسرائيلية قبل أسابيع قليلة ، فالتفت الرجل الضخم ذو العضلات المفتولة إلى جهة الهتاف ليرتفع حاجباه فى ذهول وهو يهتف :

ـ (الداهية) ؟!

وغمغم (فهمى) بأنفاس متقطعة :

ـ (إيلى .. زامير)(*) !

تقدم صاحب الشعر الكثيف ، والحاجبين الكثين ، والعينين الضيقتين ، والشفاه الغليظة ، والذى يرتدى حلة

(*) راجع العددين ٥،٦ بعنوان (عملية خط النار) و(عملية الداهية) .

رسمية كاملة كأنه يخطو فى دار الأوبرا ، من الضخم المفتول العضلات ، الذى يجلس على مقعد فى مواجهة (فهمى) ، وكان الأخير مقيدًا فى إحكام بحبال غليظة إلى مقعد آخر ، وبجواره منضدة عليها أدوات التعذيب من مشارط وملاقط وخلافه ..

ـ لن تجدى هذه الوسائل نفعًا يا عزيزى (موشيه) ..

نهض (موشيه) فى احترامٍ جم ، وهو يقول :

ـ جميعهم يعترفون فى النهاية يا سيدى ..

وقف (زامير) فى مواجهة (فهمى) قائلاً :

ـ ليس أصدقاؤنا المصريون من هؤلاء يا عزيزى ، أليس كذلك ؟! أنتم أصدقاؤنا يا سيد (فهمى) بعد أن وقع رئيسك مع رئيس وزرائى معاهدة السلام ..

كان (فهمى) يلهث ، حين انحنى (زامير) مستندًا بكفيه على ركبتيه ، ليقرب وجهه من وجه الأول ويردف :

ـ والآن ، ألن تخبرنا بما نود معرفته ؟! دعك من المهمة التى كنت مكلفًا بها هنا فى (بيروت) قبل دخولنا

بأيام ، فهذه نعرف عنها كل شيء ، أتحدث عن المشروع الغامض الذى تعدون له منذ سنوات مع الأمريكان والفرنسيين .. ما هو ؟! مشروع نووى ؟! قمر صناعى للتجسس ؟! هه ؟!

ظل (فهمى) يلهث ، وظل (زامير) يتابع :

ـ أنت لا تجعل الأمر سهلا سواء بالنسبة لك أو لنا يا سيد (فهمى) ..

ـ قم بإنهاء حياتى الآن يا (زامير) .. لأننى لو خرجت حيًا من هنا فسأطاردك إلى أقصى الأرض ، وأنت تعلم أننى أعنى ما أقول دائمًا ..

اعتدل (زامير) فى وقفته ، وارتج جسده الضخم بالضحك المكتوم للحظات ، قبل أن يخرج من جيب سترته الداخلى سيجاره الأثير ، ويشعله متلذذًا بنفخ دخانه فى وجه (فهمى) ..

ـ سيحدث يا عزيزى ، ستلقى حتفك ولكن .. ببطء ، ربما عندما يتجاوز الألم حدود الاحتمال فى جسدك نخرج منك بمعلومة شاردة .. أنت تعرف أسالبينا جيدًا ، أليس كذلك ؟!

ـ ليكن يا (زامير) ..

زمجر بها (فهمى) وهو ينظر إليه بعين نارية ، ثم ...

ـ تذكر أننى قد طلبتها منك أولا ..

ثم انطلق ملتصقًا بكرسيه كصاروخ نحو (زامير) ، الذى فوجئ بأن غريمه يملك من القوة ما يهاجمه به بغتة ، وقبل أن يدرك الأمر كان (فهمى) قد سقط فوقه على الأرض ، موجهًا عدة ضربات رأس موجعة ، قبل أن يحمله (موشيه) من فوقه ويعيده إلى سيرته الأولى جالسًا ومقيدًا ، وإن زاد لهاثه أضعافًا مضاعفة ..

بعدها ، تحامل (زامير) على يد (موشيه) ، ووقف نافضًا الغبار والدماء عن ملابسه الأنيقة بملامح متجهمة ، وبحث عن سيجاره ليجده ملقى على الأرض ، فأشار إلى الضخم الذى أحضره إليه ليفاجأ (الداهية) بأنه انكسر نصفين ..

اقترب (زامير) من (فهمى) وهو يزمجر هادرًا :

ـ تحاول أن تتظاهر بالبطولة إذن أيها الـ ... انظر ماذا فعلت بملابسى وبسيجارى ؟!

افتر ثغر (فهمى) عن بسمة ساخرة محدودة رغم الألم الذى يكابده ، فقد درس جيدًا فى (القاهرة) ملف هذا (الداهية) ، وقرأ كثيرًا عن ولعه بهندامه وهيئته ونظامه الخاص ..

ولم يبلغ به حد المرض النفسى ..

انهال (زامير) بقبضته لاكمًا (فهمى) فى وجهه ، ثم أمسك بتلابيبه صائحًا :

ـ تريد الموت ؟! هه ؟! ستناله إذن يا .. عزيزى !

ودون وعى منه استل (زامير) مسدسه من جرابه ، وصوبه إلى رأس (فهمى) الذى أغمض عينيه ، ونطق الشهادتين ، ثم ...

بوووم ..

انتهى كل شىء ، برصاصة فى منتصف الجبهة !!!

بعد صمت طال ، وجد (موشيه) بعض الشجاعة التى أعانته على القول :

ـ لقد فقدنا مصدر المعلومات يا سيدى كما هو واضح ..

تجاهل (زامير) عبارته ، وأعاد مسدسه إلى جرابه قائلاً فى تأفف :

ـ عليك الآن تنظيف المكان وإعادته كما كان قبل قدومى ..

أشار (موشيه) إلى جثة (فهمى زهران) :

ـ والجثة يا سيدى ؟!

ـ لا تتركها حتى تتعفن ، قم بتذويبها فى سائل حمضى قوى حتى نقضى على آخر أثر لها فى هذه الدنيا !

وغادر (الداهية) الشقة من بابها الرئيسى مستمرًا فى نفض ملابسه وإعادة تسويتها ، بينما (موشيه) يتساءل بينه وبين نفسه عن الطريقة التى دخل بها الشقة بحجمه الضخم ، دون أن تفقد ملابسه هندامها على الإطلاق !

★ ★ ★

مدريد ـ الوقت الحاضر ..

وضع العميد (منصـور حـرب) تذكـرة السـفر فـى جيبـه وهو يغادر مكتب السفريات فـى سرعة ، نـاظرًا فـى سـاعة معصمه التى أشارت إلى الرابعة عصرًا إلا بضع دقائق ..

بعد هذه الدقائق يحين موعده ، وعليه ألا يتأخر ..

وبعد هذه الدقائق كان يصعد درجات مبنى قديم ، فى شـارع قريب ، وتوقف أمام باب ، فطرقه ، وانتظر حتى انفتح عـن رجل أشـعث الشـعر ، قـوى البنيـة ، لم يحلق ذقنه من أيـام كمـا تنبئ الأشـواك النابتـة على وجنتيـه ، ولم يستحم منـذ أسابيع كما تشى رائحته الفظيعة..

ـ من أنت ؟!

سـأله الرجـل بالإسـبانية ، وبالإسـبانية أجابـه العميـد (حرب) بسؤال :

ـ هل أنت (ميجيل) ؟!

نظر إليه الإسبانى بوجه متجهم ، قبل أن يقول فى غلظة :

ـ أنا هو ، ماذا تريد ؟!

بادله العميد (حرب) التجهم بأفضل منه :

ـ يقولون إنك الأفضل فى مجالك بلا منازع ..

قال (ميجيل) زاجرًا :

ـ هذه ليست إجابة سؤالى ..

ـ إجابة سؤالك هى أننى أريدك فى مهمة عاجلة !

ـ هذه ليست إجابة سؤالى الأول ..

ـ أنا زبون يحتاج إلى خدماتك ..

ـ ومن دلك علىّ ؟!

ـ علاقاتى كثيرة ومتشعبة ، ومن يسأل لا يتوه ..

ـ هذه ليست إجابة تدفعنى للعمل ، فأنـا لا أعمـل إلا مـع من أعرفه جيدًا .. سلام يا صاح ..

كاد (ميجيل) يعود إلى الداخـل ويغلـق البـاب خلفـه فـى قوة ، لكن :

ـ ماذا عن إجابة كهذه إذن ؟!

قالها العميد (حرب) مبرزًا رزمة ضخمة من الأوراق المالية فى يده أمام (ميجيل) الذى سال لعابه لمرآها ، وقال فى تسليم :

ـ لا تبدو إجابة سيئة إلى هذا الحد ..

فى الداخل جلسا إلى مائدة وطيئة فى ظلام نسبى بفعل إغلاق كل النوافذ والشرفات ، وعلى المنضدة بينهما بندقية قنص حديثة لامعة ذات منظار مقرب ، ورزمة الأوراق المالية الضخمة ..

ـ تريدنى أن أصيد لك رجلا إذن ؟!

ـ فى الواقع أنا لا أطلب رأس رجل !

قالها العميد (حرب) وهو يكبت فى داخله الأصوات التى تدعوه للمغادرة فورًا والتراجع قبل الغوص فى الوحل أكثر ، لكن الأوان كان قد فات للاستجابة لصوت الضمير عندما قال (ميجيل) فى صياح متذمر :

ـ أنا لا أعمل فى مجال قنص الحيوانات يا صاح ..

فاستدرك العميد (حرب) بسرعة :

ـ أعنى أنى أريدك أن تصيد امرأة !

ـ هكذا !

ـ هاك صورتها ..

وأخرج العميد (حرب) من جيب معطفه صورة واضحة لامرأة ثلاثينية متوسطة الجمال ، لا تظهر الصورة أنها قعيدة كرسى متحرك ..

امرأة تدعى (مادلين تشايمر) !

ـ جميلة ، هل هى زوجة خانتك أم ... ؟!

غمغم العميد (حرب) بعد إذ زفر فى حرارة :

ـ زوجتى لم تكن خائنة ..

ووجه حديثه إلى (ميجيل) فى جفاء :

ـ ولا تسأل كثيرًا ، العنوان مدون على ظهر الصورة ، وعليك أن تنهى المهمة الليلة قبل أن يتغير مكان إقامتها .. هل هذا مفهوم ؟!

قال (ميجيل) مداريًا انزعاجه بالنظر إلى رزمة النقود:

ـ مفهوم .. مفهوم قطعًا ..

فى السابعة مساء احتوت الطائرة العميد (حرب) ، بملامح وجه قاسية قدت من صخر لا تشى بما يعتمل داخله ، ونظر إلى التذكرة فى يده ، والتى غير من مسارها

فى اللحظة الأخيرة من داخل المطار ، عندما وجد رجلا يرتدى ملابس شركة توصيل طرود شهيرة يقترب منه :

ـ السنيور (منصور حرب) ؟!

ـ ماذا تريد ؟!

ـ لديك مظروف بعلم الوصول ..

ناوله الرجل المظروف وأخذ توقيعه ثم إنصرف ، وعندما فتحه العميد (حرب) وجد بداخله وريقة صغيرة للغاية مدون فيها :

(باريس) .. المحطة الأولى .. والأخيرة

رجل الليل

وهكذا فبدلا من أن يتجه إلى (القاهرة) ، ها هو ذا فى طائرة (باريس) ، ليرى ما الذى ستسفر عنه الساعات القادمة من حدثان !

★ ★ ★

القاهرة ـ ١٩٨٦

ـ هل تأخَّرت ؟!

تساءل السيد (عفت) وهو يدلف إلى الجناح الجديد الذى يتم تجهيزه وتأثيثه وطلاء جدرانه من الهيئة الأمنية التى يعمل بها ، فأجابه السيد (منصور) الواقف فى ثبات يراقب بعض العمال وهم يرفعون شعار (إدارة المهام الخاصة ـ المكتب ١٧) فوق مدخل الجناح :

ـ بعض الشىء ..

ـ إنه حظر التجول الذى يفرضونه على شوارع المدينة بسبب انتفاضة جنود الأمن المركزى ، أوقفونى عدة مرات وكاد ضابط متهور أن يلقى القبض علىّ عندما ارتاب فى صحة بطاقة هويتى التابعة للمكتب (١٧) ، فهو لم يسمع عن جهة أمنية كهذه من قبل كما قال !

غمغم (منصور) وهو يتحسس موضع خاتم زواجه الشاغر منذ عام أو أكثر قليلاً :

ـ فى هذه البلاد نعيش دائمًا على حافة الخوف ..

سأله (عفت) فى عفوية :

ـ هل تقول شيئًا ؟!

هز (منصور) كتفيه :

ـ لا عليك ، ليس شيئًا ذا بال ..

عاد (عفت) يسأله :

ـ كيف حال تلميذك ؟!

وعاد (منصور) يهز كتفيه :

ـ بخير ، تتولى (عزة) طليقتى تربيته نظرًا لانشغالى الدائم ، وهو مرتبط بها كأمه تمامًا ، حتى إننى أخشى أن تصدق المرأة نفسها ولا تصارحه بالحقيقة عندما يكون قادرًا على تحملها ..

هز (عفت) رأسه فى تفهم :

ـ أستطيع أن أتوقع هذا ، رغم أن توقعاتى لا تصيب دائمًا ..

ثم إنه أشار إلى مكتب قريب ، متابعًا :

ـ انظر ، من كان يتصور أن يمنحونى هذه الغرفة ؟! مدير الإدارة الجديدة التى تعمل كغطاء لمشروع كنت من أشد المناهضين لوجوده قبل عشر سنوات من الآن !

ارتسمت بسمة سخرية مرة على شفتى (منصور) ، وهو يتمتم :

ـ عشر سنوات ! كأنها البارحة !

وكان (عفت) يتابع :

ـ أليست هذه سخرية مبالغ فيها يا عزيزى ؟!

ـ أجل ، إنها كذلك !

قالها العميد (حرب) مومئًا برأسه ، قبل أن يعقب :

ـ توقعت أن يتم ترشيح السيد (صالح زكريا) لتولى المنصب ، فهو الرجل الباقى من الاثنين اللذين أيدا المشروع وقتها ، وكان أحد من ساهموا فى تأسيسه بحماس مبالغ فيه ..

هتف (عفت) :

ـ الجميع توقعوا هذا ، وهو نفسه كان ينتظر النبأ بمجرد ظهور الإدارة للنور هذا العام ، وقد قيل لى إنه فى حالة

ثورة عارمة على الهيئة بكاملها ، وقد هدد بتقديم استقالته فى لحظة غضب ..

تساءل (منصور) فى اهتمام :

ـ وهل هناك سبب لعدم ترشيحه ؟!

مط (عفت) شفتيه قائلاً وهو يلوح بكفيه :

ـ لا علاقة للكفاءة بهذا الأمر وإلا لنالها (صالح) على طبق من ذهب ، فى الحقيقة إن الرجل أولى بالمنصب منى لكل ذى عين ترى ، أعتقد أن الأمر له علاقة بالرضا السياسى ، إن القيادة الحالية غير راضية عن المشروع تمامًا ، لكنه أمر واقع تم اعتماد الملايين للإنفاق عليه منذ سنوات ، وأصبح عليه أن يكتمل بالقصور الذاتى .. أعنى أنهم لا يريدون شخصًا متحمسًا مثل (صالح) لإدارة المشروع وتطويره ، وإنما شخص مثلى متحفظ تجاهه حتى يضع الأمور فى نصابها الصحيح بحيث لا يفلت الزمام منا .. هل تفهمنى يا (منصور) ..

هز (منصور) رأسه فى إيجاب رصين ، وقال :

ـ أفهمك تمامًا يا عزيزى ..

ـ إحم .. من فضلكما أيها السيدان ..

التفتا إلى صاحب الصوت ، رجل فى بداية الأربعينيات قصير القامة مكتنز القوام له شارب كث والعرق يرشح غزيرًا على وجهه وملابسه ؛ إذ يسأل فى ارتباك :

ـ كنت أريد مقابلة السيد (منصور حرب) أو السيد (عفت حفنى) !

ابتسم (عفت) قائلاً فى أريحية :

ـ على الرحب والسعة أيها السيد ، كلاهما أمامك الآن ..

ازداد ارتباك الرجل وهو يقول :

ـ أهلا .. فى الحقيقة .. أنا .. أعنى .. أقدم لكما نفسى .. (مؤنس علام) المرشح لرئاسة القسم التقنى فى الإدارة الجديدة ..

تصافحوا ، وسأل (منصور) مستعينًا بذاكرته الحادة :

ـ أعتقد أن أحد أقربائك مشارك فعال فى مشروعنا يا سيد (مؤنس) !

ـ بالفعل يا سيدى ، للدقة .. إحدى قريباتى ..

وأخرج منديلا ورقيًا يمسح بهِ جبهته ، ثم أردف :

ـ (دينـا) ابنـة شقيقتى .. إن ظروفها الأسرية صعبـة للغاية ، وقد فكرت أن مشروعًا كهذا يمكـن أن يكون بدايـة جديدة لها لتستقل بذاتها عندما تنضج ..

تنهد (منصور) ، قبل أن يغمغم :

ـ كم أتمنى أن تكون على حـق ، وكـم أخشـى .. ألا تكون !

★ ★ ★

مدريد ـ الوقت الحاضر ..

رفع مفتش الشرطـة الإسـبانية الغطـاء المبقع بالدم مـن فوق الجثة فى منتصـف الصالـة ، واختلجت ملامـح وجهـه للحظة حينما رأى بشاعة المنظر :

ـ يا إله السموات ..

غمغم لها وأعـاد الغطـاء على الفور ، ثم نـهض ليواجـه الرجل النحيل الطاعن فى السن ، الذى يقـف أمامـه مرتجفـا كسلك كهرباء عار ، وسأله فى صرامة :

ـ إذن فقد وقع حادث قتـل باستخدام الرصاص فى شقتك أيها السيد ، فى حين أنك تنكر معرفتك بأى شىء !

قال الرجل المرتجف كسلك كهرباء عار :

ـ لأننى لا أسكن فـى هذه الشـقة يـا حضـرة المفتـش .. صحيح أنى أملكها لكنى لا أسكنها ، بل أؤجرها بـاليوم فـى المواسم السياحية وتدر علىّ دخلا لا بأس به ..

بنفس الصرامة سأله المفتش :

ـ ولمن أجرتها آخر مرة ؟!

ارتجف الرجل كسلك كهرباء عار قبل أن يجيب :

ـ امرأة فرنسية تجلس على كرسى متحرك يا سيدى ، اسمها (مادلين تشايمر) !

أشار المفتش فى غضب إلى الجثة المغطاة فى منتصف الصالة ، وصاح :

ـ ما الذى أتى بهذا الرجل إلى هنا إذن ؟!

ـ ومن أين لى أن أعرف يا سيدى ؟! أنا لم أكن أشاهد المرأة الفرنسية إلا لممًا ، وربما ظهرت معها فرنسية أخرى قصيرة القامة تدعى (صوفى) ، هذا كل ما أعرفه عنهما ..

ـ متى تركت (مادلين) هذه الشقة آخر مرة ؟!

ـ لا أعلم يا سيدى !

ـ ألم تظهر (صوفى) هذه اليوم أو أمس ؟!

ـ لا أعلم يا سيدى ؛ فأنا لا أتابع السكان فى شقتى بصفة يومية خاصة عندما يدفعون إيجار عدة شهور مقدمًا !

ـ ألم تشعر بأية تحركات مريبة قبل وقوع الحادث ؟!

ـ كـلا !

ـ ألم تر القتيل هذا من قبل ؟!

ـ كيف أحدد هذا يا سيدى ، عندما تكون ملامح وجهه قد تشوهت بفعل الرصاص يا سيدى ؟!

جاهد المفتش لكبت حنقه ، وكان فى أعماقه يلتمس العذر لهذا الرجل الجاهل بكل شىء ، فكل شىء فى قضية القتل هذه غامض حتى بالنسبة إليهم ، بدءًا من الأسئلة المعتادة مثل :

من هذا الرجل ؟!

كيف دخل هنا ؟!

ماذا كان يريد ؟!

من أطلق عليه النار ؟!

كيف ؟!

وانتهاء بالأسئلة الصعبة غير المعتادة من قبيل :

ما سر السلاح الذى يمسك به القتيل ، بندقية القنص التى لم يطلق منها رصاصة واحدة ؟!

ما سر الأموال الكثيرة التى عثروا عليها فى ملابسه ؟!

لماذا لم يجدوا أى أوراق هوية فى جيوبه ؟!

مـا سر طلقـات الرصـاص التـى سمعها الجـيران داخـل الشقة وعلى إثرها تم إبلاغ الشرطة ؟!

من أطلقها ؟!

وأين هو ؟!

ولماذا لا يوجد له أدنى أثر ؟!

قـرر المفتـش أن يكثـف جهـوده فـى سبيل البحـث عـن (مادلين تشايمر) التى كانت فى الوقت نفسـه تجلس داخـل طائرتهـا الخاصـة فـى أحـد مطـارات ضواحـى (مدريـد) النائية ، عندما بلغت سيارة صغيرة المطـار ، وترجلت منها الفرنسية قصيرة القامة : (صوفى) ..

داخل الطائرة ابتسمت (مادلين) لرؤيتها قائلة :

ـ تأخرتِ يا فتاة ، إنها العاشـرة مسـاء الآن .. كـان مـن المفروض أن نقلع منذ نصف ساعة ..

جلست (صوفى) فى مقابلها ، وقالت :

ـ لقد أخبرت الطيار أن يقلـع بـالفعل ، وبالنسـبة للتـأخير أعتـذر عنـه .. كـان يجـب أن أنتهـى مـن القـاتل الـذى كـان يستهدفك أولا ..

شهقت (مادلين) فى حركة مداعبة مصطنعة ، وقالت :

ـ أوه .. (صوفى) ، يا لك من قاسية .. هل قتلتيه ؟!

ابتسمت (صوفى) فى فخر :

ـ ست رصاصات كاملة فى الوجه !

ضحكت (مادلين) :

ـ المسكين ، وجهه تحول إلى مصفاة ..

ـ لقد كنت كريمـة معـه إلى أقصى حد ، تركت له بـاب الشقة مفتوحًا وكنت أنتظره فى الداخل شاهرة مسدسى مـن جلستى المفضلة فوق الثريا العالية ، الطريف فى الأمر أننى أخذت من جيوبه كل ما يمكن أن يدل علـى هويتـه وتركت النقـود فقـط ، حتـى أدفـع الشـرطة الإسـبانية اللعينـة إلـى الجنون دفعًا ..

ضحكت (مادلين) بصوت أكثر علوًا ، وبدا أنها فى قمة الاستمتاع ؛ إذ تقول من بين قهقهاتها :

ـ (صوفى) ، أنت قاسية وذكية أيضًا !

غمزت (صوفى) سائلة فى مكر :

ـ هل أستحق كلمة شكر من شخص فى حجم (رجل الليل) إذن ؟!

لمعت عينا (مادلين) وهى تجيبها :

ـ (صوفى) .. صدقينى .. أنت تستحقين ما هو أفضل من ذلك بكثير !

وكانت الطائرة قد بدأت فى رحلة إقلاعها الليلى ..

نحو الشمال ..

نحو (باريس) !

★ ★ ★

القاهرة ـ ١٩٩٠

طرق السيد (منصور) الباب عدة مرات ، ولما لم يتلق ردًا فتحه فى رِفق ، وأطل برأسه عبره ليرى السيد (عفت) منهمكًا فى متابعة التلفزيون ..

ـ هل يمكن أن أدخل ؟!

هتف (منصور) ، فأشار له (عفت) بالدخول دون أن ينظر إليه ، ودون أن يرفع عينيه من على الشاشة ..

ـ أين سكرتيرتك يا سيد (عفت) ؟! أم هل أقول يا سيادة العميد (حفنى) ؟!

تساءل (منصور) :

ـ السكرتيرة فى إجازة وضع ، وبالنسبة للألقاب فهى متروكة لك .. اجلس ..

قالها (عفت) ، ودون أن يرفع عينيه من على الشاشة هتف فى انزعاج بالغ :

ـ هل تصدق هذا يا (منصور) ؟! دولة عربية تعتدى على دولة عربية أخرى دون سبب واضح ؟!

هز (منصور) كتفيه :

ـ وما أدرانا بالأسباب الخفية يا سيادة العميد ؟!

ـ مهما يكن السبب ، الأخ لا يأكل لحم أخيه يا سيادة المقدم ، والبادى دائمًا أظلم !

فهم (منصور) دعابته الخفية المزدوجة ، فقد ناداه برتبته لأنه سبقه وفعلها ، وفى النهاية تجاوز كل هذا وبادر بالسؤال :

ـ ما آخر الأخبار بشأن الاقتراح الذى قدمناه للإدارة العليا يا سيادة العميد ... ، أعنى يا سيد (حفنى) ؟!

ـ تم رفضه بمنتهى القوة يا عزيزى !

قالها (عفت) فى بساطة ، فهز (منصور) رأسه فى تفهم وقال :

ـ كان هذا متوقعًا ، أليس كذلك ؟!

ـ بلى ، كيف يوافقون على اقتراح بإلغاء هذه الإدارة فى حين أنهم أنفسهم من صرحوا بإنشائها قبل سنوات قليلة ؟! هذا طعن صريح فى مصداقية السياسات المتخذة من قبلهم ..

تنهد (منصور) :

ـ إذن فالمشروع السرى مستمر إلى ما شاء الله ..

وتنهد (عفت) :

ـ دعنا ننسى ما حدث طوال السنين الماضية ولنحاول أن نبدأ من البداية كأن شيئًا لم يكن يا عزيزى ..

ـ هذا ما كنا نحاول فعله باقتراح إلغاء إدارة المهام الخاصة هذه ..

ـ والآن نحن مضطرون لأن نستمر ، بعد كل ما حدث ، وبعد كل المياه التى جرت تحت الأسوار ، وبعد أن لقى (دوبويه) و(فهمى) مصرعهما فى ظروف غامضة ، وبعد أن تركنا (صالح) وانضم لجهاز أمن الدولة ، بعد كل هذا مازلت أرى أنه يمكننا البدء مرة أخرى ..

ـ كيف ؟!

ـ سنتعامل مع النشء الذى تلقى التدريبات كمواطنين عاديين ينضمون لخدمة جهاز أمنى ذى طبيعة خاصة ، سنضمهم إلينا ونحاول أن نوفر لهم ظروف حياة طبيعية ، بحيث نستفيد منهم ونفيدهم فى الوقت نفسه ..

ـ وتكمل دائرة الكذب نفسها ..

ـ أفضل من أن تخنق أبناءنا هؤلاء داخلها .. بالمناسبة ، كيف حال تلميذك ؟!

ـ بخير ، يريد دخول الثانوية الجوية و ....

قبل أن يكمل عبارته ، ارتفع رنين هاتف المكتب ، فقال (حفنى) متأففًا :

ـ هذه مشكلة عدم وجود سكرتيرة !

ورفع السماعة :

ـ آلو .. نعم .. ماذا ؟!

صاح بالكلمة الأخيرة مفزوعًا ، فتوتر (منصور) فى جلسته ، وأنهى (عفت) بقية المكالمة بسرعة قبل أن يغمض عينيه مغمغمًا فى ألم :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون ..

سأل (منصور) وقد بلغ به التوتر مبلغه :

ـ ماذا يا سيد (عفت) ؟!

ـ السيد (صالح زكريا) .. لقى مصرعه فجر اليوم فى (أسيوط) برصاصات الإرهاب المسلح !

★ ★ ★

مدريد ـ الوقت الحاضر ..

على الطريق السريع الخارج من شمال (مدريد) دارت إطارات سيارة متهالكة يصدر محركها خوارًا رهيبًا ، وفى داخلها صاح السائق بأمريكية واضحة :

ـ بهذه السرعة سوف نبلغ الحدود الفرنسية عند الصباح ..

أجابه صوت يتحدث الإنجليزية بلكنة آسيوية صريحة :

ـ تقصد أننا بهذه السرعة سوف نصل إلى الجحيم بسرعة الضوء !

ضحك الأمريكى الأصلع الأشيب الفودين لعبارته السمجة ، والتمعت عينا الآسيوى الجالس إلى جواره قبل أن يسدد بصره إلى الثالث حليق الرأس الجالس وحده على الأريكة الخلفية ، وعيناه موجهتان إلى الخارج فى نظرات تأملية عميقة إلى اللامكان ..

قال (رالف آندرسون) وهو ينظر إلى (عمر زهران) فى مرآة السيارة التى يتولى قيادتها :

ـ يبدو أن صديقنا المصرى لم يهضم الصدمة بعد ..

هز الدكتور (ميشيما) الضئيل كتفيه :

ـ لقد حذرته من مغبة المعرفة ، ولم يستمع إلي..

سأله (رالف) :

ـ وهل أنت واثق من (رجل الليل) هذا ؟! أعنى هل هو قادر على أن يعبر بنا الحدود الفرنسية بعيدًا عن عيون الحرس بالفعل ؟!

أجابه (ميشيما) فى حماس :

ـ (رجل الليل) يستطيع أن يفعل أى شىء ، إنه لمن الغريب أن يطلب مقابلتنا عن طريق وسيط هاتفنى هذا الصباح ، هذا الوسيط رجل فرنسى كنت أعرفه وعالجته من قبل فى مدينة (ليون) .. لن تتصور مدى شهرة (رجل الليل) هذا فى العالم السفلى ، إنه أسطورة يا رجل .. كل شخص داخل عالم الليل يتمنى مقابلته !

سأله (رالف) :

ـ ألم تره من قبل ؟!

ـ القواعد معروفة ، (رجل الليل) لا يراه أحد ، لقد قابلته مرة من قبل دون أن أرى وجهه ، كان متخفيًا خلف قناع طفل ضاحك !

ـ يمكن أن يكون من قابلته أى شخص ..

ـ لا يملك أى شخص قدرات (رجل الليل) ، سلنى أنا عن هذا ..

ـ هل يأكل الزجاج أم يسير على الماء ؟!

ـ لا تستهن به ، فالقواعد كما أخبرتك معروفة ، لا يمكنك أن ترفض مطلبًا لـ (رجل الليل) أبدًا ، وإلا كانت العاقبة وخيمة وعليك أن تتحمل كل المخاطر الناجمة عن ذلك ..

ـ ولماذا لم تتصل به مباشرة ؟!

ـ هذه هى القاعدة الثالثة ، لا يمكنك الاتصال بـ (رجل الليل) مباشرة ، لكنه يستطيع العثور عليك متى قرر ذلك وإن كنت فى بطن الحوت ..

ـ والرابعة ؟!

ـ لا توجد قاعدة رابعة ، هناك ثلاث قواعد للتعامل فقط مع (رجل الليل) ..

نظر (رالف) فى مرآة سيارته مجددًا ، ليرى (عمر) غارقًا فى همومه ، يهتز مع اهتزازات السيارة على الطريق ، وتساءل :

ـ وهل اقتنع صديقنا بالذهابِ إليه بهذه السهولة ؟!

ـ لقد طلب منى الوسيط إبلاغه بأن (رجل الليل) يريد أن يكشف له الكثير من الأسرار ..

ـ أتمنى أن يكون المشوار مجديًا ، فقد كلفنى استئجار هذه السيارة آخر ما تبقى من مدخراتى !

ـ كم أنت مفلس يا صديقى !

كان من الغريب أن يتحدثا عن (عمر) بهذه الصراحة هو على مبعدة سنتيمترات منهما ، لكن (عمر) كان يستمع إليهما بنصف أذن ، ونصف عقل ، ونصف قلب ، وقد انعزل عن العالم داخل شرنقته الخاصة التى يعيد فيها حساب نفسه بعد سنين عمره القصيرة التى عاشها ..

أتكون حياته حقًا ليست إلا كذبة كبيرة كما قالت (مادلين) ؟!

هل اشترك الجميع فى تدمير حياته وهو مازال قطعة لحم أحمر فى المهد ؟!

هل هو نسخة ميلودرامية من كوميديا (جيم كارى) فى فيلم (عرض ترومان) أو Truman's Show ؟!

وهذه الشريحة اللعينة فى جمجمته ..

هل ... ؟!

آلاف الأسئلة ، بحور من علامات الاستفهام ، وحياة بلا معنى ..

ولنر ما الذى سيقدمه لنا (رجل الليل) المزعوم هذا بدوره هو الآخر ..

هل يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ ؟!

عليه فقط أن يحتاط لنفسه ..

أن يكون جاهزًا عندما...

تحسس مسدسه فى مكمنه بين ملابسه ..

واسترخى فى مقعده قليلاً ..

ثم ...

غفا غفوة زخرت بأكبر قدر من الكوابيس التى يمكن أن تحويها إغفاءة لم تتعد الربع ساعة !

★ ★ ★

باريس ـ ١٩٩٧

منتصف الليل تمامًا ..

(مادلين تشايمر) تنظر عبر نافذة غرفة مكتبها ، بمقر شركة (ماربل) للتقنيات ، إلى الشوارع الخالية من الزحام بالأسفل ، دون أن تخلو من الحياة ..

كيف تخلو (باريس) من وهج الحياة للحظة ؛ ليلية كانت أو نهارية ؟!

خلفها على سطح مكتبها ملف قديم مترب ، مكتوب فوقه بالفرنسية (عملية المشروع السرى) مع رمز كودى طويل نوعًا ..

على سطح المكتب أيضًا صورة قديمة مؤطرة بإطار حديث ، لأب يبتسم وابنته إلى جواره تنظر للكاميرا فى براءة وتساؤل ..

تنظر (مادلين) عبر النافذة الآن ..

وتتذكر ..

كانت طفلة عندما اصطدمت سيارة والدها بسيارة أخرى ، يومها قيل إنه كان منطلقًا بأقصى سرعة فى شارع مزدحم بالعربات والمارة ، كأنه ...

كأنه كان يهرب من شىء ما ..

عملية كهذه التى تقرأ تفاصيلها على مكتبها ، وعمليات أخرى ما زالت تجهل كل شىء عنها ، كانت السبب فى الحادث الذى بدا عرضيًا ، فى حين أن إشارات خفية تؤيد كونه مدبرًا ..

عملية كهذه عثرت على ملفها بالصدفة بين أوراق أبيها القديمة بقبو الشركة الذى تم إغلاقه ، ولم يعد يستخدم تقريبًا منذ لقى والدها مصرعه إلا كمخزن للمهملات ..

كلا .. لم تكن صدفة ..

إنها المكالمة التى تلقتها منذ أسابيع ..

المكالمة المقتضبة على هاتف مكتبها ، التى قال المتحدث فيها بصوت رجولى فخيم :

ـ ابحثى عن السر فى القبو ..

وأغلق السماعة تاركًا إياها نهبًا للوساوس والظنون ..

ومنذ بضعة أيام عثرت على الملف ..

منذ بضعة أيام وهى تفكر ماذا يمكن أن تفعل وقد عرفت الآن السر الذى فى القبو ؟!

ماذا يمكن أن تفعل وقد ذهب والدها بغير رجعة تاركًا لها الأموال والشركة وآخذا معه آخر قطرة من الحنان والمحبة ؟!

منذ بضعة أيام حتى اليوم..

اليوم قبل ساعات قليلة ، عندما تلقت مكالمة أخرى من نفس الصوت الرجولى الفخيم :

ـ هل وجدت السر فى القبو ؟!

ـ من أنت ؟! وماذا تريد ؟!

ـ هل بحثتِ جيدًا ؟!

ـ تكلم وإلا أغلقت السماعة ..

ـ أحادثك بالنيابة عن أناس يريدون استعادة الملف ..

ـ هل أنتم الشركاء ؟!

ـ لقد عثرتِ على الملف إذن ..

ـ لن أعطيكم شيئًا ..

ـ سنأتى الليلة لاستعادته .. إلى اللقاء ..

انغلق الخط ، وبدأت المخاوف ..

ساعات من الانتظار حتى ...

جاءوا أخيرًا ..

رأتهم من وقفتها عند النافذة بعد منتصف الليل بدقائق ، يهبطون من سيارتين كبيرتين ربضتا على جانب الشارع ، وخفوا السير فى معاطفهم السوداء حتى بوابة الشركة التى يقف عليها رجال الأمن الخاص ..

اشتد النزاع بالأسفل ، حتى أخرج أحدهم مسدسًا ، و ...

كانت النتيجة معروفة ..

ضرب الرعب قلب (مادلين) ، اتسعت عيناها وهى تحمل الملف من فوق سطح المكتب ، يختلف اتساع عينيها الآن عن اتساع العينين فى الصورة اختلافًا كبيرًا ..

تهرول (مادلين) نحو سلالم الطوارئ ، تعدو فوق الدرجات نحو المرآب بالأسفل ، تندس فى داخل سيارتها وتضع الملف إلى جوارها ، تدير المحرك ..

وتنطلق بأقصى سرعة فى الشوارع التى يفترض أن تزدحم بالعربات والناس ..

حركة السير خفيفة فى الليل ، لكن ...

إحدى السيارتين انطلقت خلفها ، كسرت السيارتان إشارتى مرور حمراء ، أطلقت السيارات النوافير وأطلق سائقوها عبارات السباب وصيحات الفزع ، وصرت المكابح ولم يكن هناك مفر من بعض الارتطامات البسيطة ..

حتى حدث ما لم يكن منه مفر ..

الارتطام المروع بجدار مبنى ضخم ..

سيارات الشرطة والإسعاف ..

الصيحات ..

وأخيرًا تفيق (مادلين) فى المستشفى ، لا تقوى على تحريك ساقيها ..

شلل نصفى مستديم نتيجة كسر فى العمود الفقرى ..

ستقضين بقية العمر على كرسى متحرك ..

أما الملف ..

فقد ضاع ..

كلا ، لا أثر لورق محترق فى السيارة المهشمة ..

الملف ضاع ، كأنه لم يكن موجود من الأصل !

★ ★ ★

باريس ـ الوقت الحاضر ..

صباح فرنسى مشمس ، وطرقات منتظمة على باب مغلق ..

انفتح الباب ليظهر من خلفه العميد (منصور حرب) ، بوجهه المتجهم وعينيه الحمراوين اللتين لم تناما طوال الليل على ما يبدو ، وقال فى لهجة منهكة مفسحًا طريقًا للدخول :

ـ مرحبًا (روب) ، تفضل ..

دون أن ينطق دخل الشاب ذو الملامح الغريبة غير المتسقة ، الأنف الكبير والفم والصغير والوجه المثلث بقاعدته لأعلى ، والنظارة الشمسية التى تخفى العينين ، والقبعة الفرنسية والمعطف الصوفى الأسود الثقيل ، والحقيبة الصغيرة المدلاة من فوق الكتف الأيمن ..

الشاب الذى خاطبه العميد (حرب) باسم (روب)(*) ..

(★) راجع العدد رقم (١٢) بعنوان (عملية كشمير) ..

أغلق العميد (حرب) الباب خلفه ، ونظر إلى (روب) الذى جلس على أول أريكة قابلته ، قائلاً :

ـ دعنى أعد كوبين من الشاى لنا أولا ..

غاب العميد (حرب) فى المطبخ قليلاً ، وعاد ليجد (روب) قد أخرج حاسوبه النقال وأوصله بالانترنت وطفق يعمل عليه لتنعكس البيانات على زجاج نظارته الداكن ، فوضع الرجل الصينية بالكوبين على منضدة أخرى ، وجلس فى النهاية قبالته قائلاً وهو يرشف من الشاى فى يده :

ـ لا وقت نضيعه يا عزيزى .. لذا دعنا ندخل فى الموضوع مباشرة ..

لم يرد (روب) ، وإنما حمل كوب الشاى وأخذ منه رشفة ..

ـ أريدك أن تحضر لى أحد رجالنا ، لقد اختفى أثناء القيام بإحدى مهماته فى العاصمة الإسبانية (مدريد) ويحتمل أن يكون متواجدًا فى أى مكان من العالم الآن ، سأزودك بكل المعلومات اللازمة على أن تحضره فى أسرع وقت ممكن ..

لم يرد (روب) ، وأخذ رشفة أخرى ..

ـ إنه (عمر زهران) ، من قابلته من قبل فى (كشمير) ، والمشكلة يا عزيزى (روب) تكمن فى أن كل ما حرصنا على إخفائه ودفنه طوال السنين الماضية يوشك أن ينكشف الآن ، وبنظرية تأثير الدومينو المعروفة فسيؤدى هذا فى النهاية إلى كارثة عظيمة لا يمكن أن نحدد مداها بالحدس وحده ..

صمت ، ورشفة أخرى ..

ـ لذا فمهمتك يا عزيزى (روب) أن تحضر (عمر زهران) ..

صمت ..

ـ حيًّا ..

ورشفة ..

ـ أو ..

أخرى ..

ـ ميتًا !

لا مزيد من الرشفات ..

واعتصر الألم الرهيب قلب العميد (حرب) بعد إذ قالها ..

لكن ..

ليس هناك خيار آخر ..

بكل أسف ..

★ ★ ★

ما سيحدث

- لا أصدق أننا عبرنا الحدود بهذه السهولة ..

قالها (رالف آندرسون) مندهشًا ، وهو يقود سيارة أخرى تختلف شكلا وموضوعًا عن السيارة السابقة ..

إنها (مرسيدس) من ذوات العيون الدائرية الفخمة !

- أنا الذى لا أصدق أننا تركنا سيارتك الفارهة على الجانب الإسبانى يا صديقي..

قالها (ميشيما) فى أسف مازح ، فصفق (رالف) بكفيه فى مرح هاتفًا :

- تبًا لها ولمن استأجرها ، يبدو أن (رجل الليل) صديقك ثرى حقًا يا صاح ..

قال الرجل ذو الملامح المغربية الذى حضر لاصطحابهم عبر الحدود من ممر آمن ، والذى يجلس فى الأريكة الخلفية بجوار (عمر زهران) الذى ينقبض قلبه أكثر مع كل ثانية تمر :

- لقد طلب أن ألبى جميع طلباتكم قبل أن تلتقوا به يا سادة ..

قال (عمر) فى اقتضاب :

- نريد أن نلقاه على الفور ..

هز الرجل المغربى كتفيه قائلاً :

- على الرحب والسعة ، لقد بلغنا مشارف (باريس) تقريبًا ..

غمغم (رالف) منزعجًا :

- ألا يجب أن نتناول الغداء أولا ؟!

همس (ميشيما) :

- كنت سأقترح مطعم (ماكسيم) ، لكن يبدو أننا سوف نؤجل ذلك كله إلى ما بعد اللقاء المرتقب ..

قال (رالف) :

ـ ما زلت أتمنى أن يكون اللقاء مجديًا ، فحتى الآن نحن ثلاثة من المفلسين فى سيارة فارهة أرسلها مضيفهم لاستقبالهم ..

ضربه (ميشيما) فى كتفه بقبضته :

ـ عش اللحظة يا صاح ، عش اللحظة بلحظتها !

وبعد أقل من ساعة ، توقفت السيارة داخل حديقة قصر منيف فى ضاحية من أرقى ضواحى العاصمة الفرنسية ، وترجل الراكبون منها واحدًا بعد الآخر ، دون أن يفلح أى منهم ـ باستثناء المغربى ـ فى مداراة انبهاره بما يراه ..

ـ تفضلوا ..

اجتازوا بوابة كبيرة مزركشة بالنقوش ، إلى بهو ملكى تتوسطه نافورة صغيرة وينتهى بسلم كبير يفترق أعلاه إلى يمين ويسار ، بالإضافة للأثاث الأصلى الذى يعود إلى عهود مختلفة من الملوك الفرنسيين الذين حمل كل منهم اسم (لويس) ..

ـ مرحبًا أيها السادة ..

أتى الهتاف بالفرنسية من أعلى السلم ، وتوجهت العيون إلى مصدر الصوت الذى بدا مألوفًا للغاية ..

واتسعت العيون فى دهشة عارمة ..

الحقيقة أن العيون قد اتسعت بشدة ، حتى إن عينى (عمر) كادتا تقفزان من محجريها ، وهو يرى الواقف بالأعلى يرحب بهم باسمًا ..

لقد كان نسخة بالكربون منه ..

نفس الملامح..

نفس البسمة ..

نفس القوام ..

نفس الصوت ..

بعبارة أخرى ، كان (عمر زهران) يقف فى مواجهة (عمر زهران) آخر ..

أحدهما مبتسم فى ترحيب ..

والآخر ذاهل ..

حتى الموت ..



[تم الجزء الثانى بحمد الله]